من التراث الإسلامي

سهل بن عبد الله التستري

المعارضة والرد

على أهل الفرق وأهل الدعاوى في الأحوال

تحقيق ونقد وتعليق
الدكتور محمد كمال جعفر
رئيس قسم الفلسفة الإسلامية
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة



للتأليف والترجمة والنشر

من التراث الإسلامي

سهل بن عبد الله التستري

المعارضة والرد

على أهل الفرق وأهل الدعاوى في الأحوال

تحقيق ونقد وتعليق
الدكتور محمد كمال جعفر
رئيس قسم الفلسفة الإسلامية
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة



للتأليف والترجمة والنشر

الطبعــة الأولى

١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م

الإهداء

* إلى من يرجو من ربه موارد الإحسان ، ويصون من أعماقه كرامة الإنسان .
* إلى أهل الوفاء فى السراء والضراء ، وحماة الألفة والمحبة والصفاء .
* إلى كل من جمع الكلمة .

وأشاع البسمة

وحفز الهمة .

وشكر النعمة .

* إلى كل من يضيف إلى الحياة ما يعين على حب واهب الحياة .

أهدى هذا الكتاب .

محمد كمال جعفر

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

تأتى الأشياء إلى الوجود وتنتهى ، وتمر الكلمات وتنفد وتنقضى إلا الكلمة التى انبثقت من ينبوع الحياة ، وإلا الحكمة التى صدرت ممن تعنو له الجباه ، وإلا الدروس المضيئة التى اقتبست من هدى رسول الله .

واليوم نقدم للقارىء جزءاً من تراثنا لا نخطىء فيه أنوار الهداية ، ولا نزكى فيه ما ليس له أصل من البداية ،غير أننا ندعو القارىء إلى ملاحظة أن هذا الجزء يضم أقوالا منثورة ، تكشف طبيعة الارتجال فى النفس المعمورة . وهى تطرق آداباً وآراء ومواقف وتعليقات متنوعة يجمع شتاتها أنها تتصل بالإنسان . فكراً ووجداناً وسلوكاً ، أو عقلا وإيماناً وعملا.

وللقارىء أن يوافق أو يخالف ما ورد من هذه الأقوال إلا أنه مطالب فى كلا الحالين بالقوة فى البرهنة والاستدلال . وعليه أن يذكر دائماً أن روح الدين الأصيل ، تخاطب دائماً أهل الفكر الدخيل بهذه الكلمة الإلهية الخالدة « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وهذه الروح – وإن كانت دينية الأصل – هى فى الوقت نفسه خلاصة الركيزة العلمية فى كل العصور ، بحيث يفقد كل علم مكانته إذا تخلى عنها .

إن ذلك يؤكد لأهل كل جيل حرص الإسلام على كرامة الإنسان ، هذا الإنسان الذى خاطبه ربه منبهاً ومحذراً بقوله « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

* * *

لقد رأينا أن نقدم لهذا النص الحديد بنبذة عن سيرة مؤلفه وعلاقاته الثقافية والدينية ، متبوعة ببعض ألوان تأثيراته فيمن تلاه ، فى أضيق صورة وأوجز بيان . ثم أوردنا النص بعد أن استعرضنا مؤلفات هذا العلم الكبير ، مكتفين فى تعليقاتنا بالقدر الذى يكشف النص ويجلى غوامضه .

وهذا النص يتيح فرصة طيبة للاتصال المباشر بالتراث ، ويعين طلابنا على التعامل مع أسلوب هذا التراث لاستكناه أسرار وآداب الأسلاف ، علنا نقبس منها ما يعين على مواجهة الحيــاة ، وحتى نثرى تجاربنا ونصلها بجذور أصيلة مكينة ضماناً لسلامة البناء وقوته . .

والله الموفق إلى ما فيه خيرنا ورضاه

محمد كمال جعفر

حدائق القبة

ذو القعدة ١٤٠٠ هـ

سبتمبر ١٩٨٠ م

تمهيد ودراسة

المؤلف

هو سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسى بن عبدالله بن رفيع التسترى (١) الزاهد الصالح الذى بز فى الفقه والتصوف وعلم الكلام . . ونسب التسترى إلى تستر ، بلدة صغيرة تقع فى الأهواز من خوزستان (٢) .

وقد اختلفت أقوال المؤرخين حول تاريخ ميلاد ووفاة التسترى ، وربما كان الخلاف على تحديد تاريخ الوفاة أكبر من الخلاف على تحديد تاريخ الميلاد . وهو أمر لم يكن متوقعاً ، إذ العادة أن يكثر الخلاف حول تاريخ الميلاد لا حول الوفاة ، وبخاصة إذا عرفنا أن جل مؤرخينا إنما يؤرخون بالوفاة . ونحن نميل إلى ترجيح تحديد الميلاد بعام ٢٠٣ هـ — ٨١٨ م وذلك اعتماداً على بعض المؤرخين الذين يذكرون سنه عند وفاته ، مثل الحافظ الذهبى فى كتابه « دول الإسلام » (٣) .

أما بالنسبة لتاريخ الوفاة فقد ذكر بعضهم أنه عام ٢٣٣ هـ كما قال صاحب اللباب (٤) وهذا ما لا يمكن قبوله لتاريخ وفاة سهل ، وربما كان هذا تاريخاً لبعض لقاءات سهل مع ذى النون المصرى ت ٢٤٥ هـ . وقد ذكر بعضهم أنه توفى عام ٢٧٣ هـ ، وهذا يمكن إبطاله بما ورد فى بعض النصوص الموثقة من أن سهلا كان حياً فى سنة ٢٧٥ هـ وأن بعض أقوال سجلت له فى هذا العام . فقد ورد أن أبا يوسف أحمد بن محمد بن قيس

---

(١) يذكر ابن الأثير (٥٥٥ — ٦٣٠ هـ) فى كتابه اللباب جـ ١ ص ١٧٦ (ط. القاهرة ١٩٥٧) أن النسبة هى تستر ا بالألف وهذا ما لم يستطع تبريره لغوياً .

(٢) اختلف حول أصل الكلمة « تستر » ، لكن ياقوت (معجم البلدان /١ ص ٨٣٨ ، ٣٩) يذكر أنها مشتقة من الكلمة الفارسية « خوش » مع إضافة لاحقة التفضيل « تر » . وقد نسب إلى تستر عدد كثير قد يوقع بعض الباحثين فى الخلط والحيرة . ويوجد وصف كامل لأهل تستر وخصائصهم فى المسالك والممالك / ٦٢ — ٦٤ ، وقارن فيلب حتى / تاريخ العرب ص ٣٦٣ ط رابعة الأصل الإنجليزى .

(٣) الجزء الأول ص ١٣٤ ط أولى .

(٤) الجزء الأول ص ١٧٦ .

السجزى سمع التسترى سنة ٢٧٥ هـ يسند حديثاً عن ابن سوار (١) ، ويؤيد ذلك أيضاً أبو نعيم فى « الحلية » (٢) حيث يذكر عن سهل بن عبدالله ابن الفرحان الاسفهروبرى (قرية من ربض مدينة أصبهان) أنه توفى عام ٢٧٦ هـ ويضيف إلى ذلك قوله : إن موته تقدم على موت أبى محمد سهل ابن عبدالله التسترى . ولعل هذا التاريخ (٢٧٥ هـ) إنما ذكر نتيجة للخلط بين وفاة التسترى وميلاد أحد أقربائه ، وهو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عمر التسترى حيث ولد عام ٢٧٣ هـ وكان عمره عشر سنوات عند وفاة التسترى . ومن هذا نرى أن المرجح هو أن التسترى توفى فى المحرم من عام ٢٨٣ هـ الموافق فبراير ٨٩٦ م . ويجب التنبيه إلى أن هناك خطأ فى طبقات الشعرانى (٣) حيث يذكر أن لقاء تم بين سهل وذى النون المصرى عام ٢٧٥ هـ مع أن الشعرانى نفسه قد ذكر — كما ذكر المؤرخون — أن ذا النون توفى عام ٢٤٥هـ — ٨٥٩ م وهذا بالطبع لا يتفق مع ما سبق .

إن المراجع لا تسعفنا بما نود معرفته عن طفولة سهل وعن أسرته ، غير أنه قد نقل إلينا أن أسرة والده امتازت بالصلاح والورع والزهد . إنها لا تحدثنا مثلا عن أبويه ، ولكنها تذكر أن له خالا صالحاً اشتغل برواية الحديث ، وكان من المعجبين بأيوب السختيانى ت ١٣١ هـ (٤) وهذا الخال هو محمد بن سوار الذى على يديه نهج سهل سبيل التصوف ، وانخرط فى سلك المريدين المبتدئين . إن حقيقة بروز خاله ، كموجه له فى هذه السن المبكرة ، تدل على أحد شيئين ، فإما أن والده قد مات قبل أن يتجاوز سهل ثلاث سنوات ، وإما أن والده لم يكن يتمتع بمثل المركز الروحى الذى كان يحتله خاله .

ولا نعرف كذلك ما إذا كان للتسترى إخوة أو أخوات أولا . إن هناك

---

(١) انظر مثلا مقدمة التفسير ص ٢ للتسترى .

(٢) حـ ١٠ ص ٢١٢ وما بعدها .

(٣) حـ ١ ص ٦٦ ، وتاريخ وفاة ذى النون صحيح ، قارن مثلا تاريخ بغداد ٣٩٧/٨ ، حلية ٣٦٣/٩ .

(٤) انظر شذرات الذهب /٣ ص ٧٦ ، ٧٧ (ط بيروت) .

اسماً واحداً يرد على أنه من أقرباء سهل ، هو من أشرنا إليه آنفاً باسم « أبى عبدالله محمد بن أحمد بن عمر التسترى » . ولم تحدد المراجع نوع القرابة التى تربط سهلا بهذا الشخص ، بل تكتفى بالقول بأنه من أقربائه ، وأنه قد تلقى بعض النصح والتعليمات من سهل قبيل وفاته ، كما ذكرت المراجع أن هذا القريب كتب فى تأييد المذهب المالكى ، وفى فضائل أهل المدينة ، وقد تولى القضاء لفترة ، ثم تركه ومات فى ربيع الأول ٣٤٥ هـ — ٩٥٦ م وله من العمر ثنتان وسبعون سنة (١) .

ومهما ضنت المصادر بالمعلومات الضرورية للكشف عن حياة سهل ، فإن هناك من الأخبار والإشارات الهامة التى تلقى ضوءاً على الكثير من جوانب هذه الحياة . غير أن هناك حقيقة تبدو بارزة فارضة نفسها على الباحث ، الذى يقفو أثر هذه الأخبار والأقوال المعزوة إلى سهل أو المشيرة إليه . وهذه الحقيقة لحسن الحظ تحظى بتأييد الشواهد العديدة ، وهى تتصل بالطابع الروحى ، والتيار النفسى ، والجو الصوفى الذى شاع وذاع وتخلل حياة التسترى طفلا ويافعاً وشاباً ثم كهلا وشيخاً . لقد نبه هذا الطابع حقيقة إلى استعداد التسترى الأصيل ، وميله الفطرى إلى حياة الخلوة والتأمل ، ثم إسلام وجهه وقلبه وكيانه إلى غرضه الأجل من رحلته الروحية التى انفسحت على امتداد عمره الثمانين .

لقد ظهر هذا الميل حقاً فى حياة جد مبكرة كما تشير إلى ذلك قصته مع خاله ، وكما يدل على ذلك أيضاً من الذهاب إلى الكتاب للتعلم . فهو لم يوافق على ذهابه إلى الكتاب إلا بعد أن اشترط شروطاً على المعلم تتعلق بأن يتركه وشأنه بعد فترة من الوقت لحياة العزلة والتهجد والتأمل . وهو أيضاً تعود أن ينهض من فراشه ليلا ليراقب خاله محمد بن سوار (٢) وهو

---

(١) انظر ابن فرحون — الديباج المذهب ص٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ويوجد من اسمه سهل بن عبدالله الفرحان الأسفهروبرى (قرية من ربض مدينة أصبهان) وقد توفى سنة ٢٧٦ هـ .

(٢) محمد بن سوار ، بصرى روى عن ابن عيينة ، وعنه روى سهل ، ولا نعرف التاريخ الدقيق لولادته أو وفاته ، ولكنه ذكر أن محمداً هذا رأى أثناء حجه أيوب بن أبى تميمة أبا بكر السختيانى الذى كان سيد الفقهاء — كما يقول شعبة — فى البصرة وكان من صغار التابعين . ونحن نعلم =

يؤدى الصلاة ويتلو الأوراد، وقد تنبه خاله فعلا إلى استعداد الطفل ورهافة حسه ، وميله إلى الحياة الروحية والاهتمام الصوفى ، فبدأ معه الدرس الروحى الأول على نقاء الطفولة وبراءتها ، وعلى محبة الخال وحنانه ، وعلى أجمل وأجل اسم يردده لسان مؤمن .

وبدأت الإثارة الروحية كالشرارة . ثم استحالت ناراً مضطرمة تختبر المعدن الأصيل فى هذه النفس العظيمة . لقد سأله الخال عما إذا كان يود هو الآخر أن يذكر الله ويسبحه ؟ وفى براءة الطفل يسأل التسترى عن كيفية هذا الذكر وذلك التسبيح ، ويفضى إليه الخال بأن ينبض قلبه ثلاث مرات بهذا الذكر ، دون تحريك اللسان « الله معى ، الله يراقبنى ، الله ينظر إلى » . وتعلم الطفل ترديد هذه الكلمات بقلبه حتى ذاق حلاوة اليقين والثقة والحب ، ويتابع الطفل الترديد مع المزيد حتى يلقى إليه الخال بآخر لفتة تعتبر متممة للدرس الأول والأخير ، ذلك الدرس الذى شكل حياة سهل الروحية ، وأضفى على سمته وسلوكه وآرائه طابعاً موحداً تحسه فى كل قول من أقواله ، أو رأى من آرائه . ونعتبر هذا الدرس بحق خير مفتاح لشخصية التسترى التى تفتقت فيما بعد .

لقد كانت هذه الإضافة موجزة ، ولكنها موحية ملهمة مزجاة فى هيئة نصيحة فيها وثوق الناصح بطواعية المنصوح ، قال الخال :«احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر . فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة» ثم سأله بعد ذلك « من كان الله معه ، وهو ناظر إليه وشاهده أيعصيه ؟ . إياك والمعصية » (١) « ومن هنا سجد قلب التسترى كما يقول ابن عربى » من أول الطريق ولا غرو أن نسمى التسترى « بساجد القلب » .

=أن أيوبا هذا ولد عام ٦٨ هـ وتوفى ١٣١ هـ (اللباب ⁄ ١ ص ٥٣٦)قارن ابن العماد /شذرات. وقد كان ابن سوار أثناء هذا اللقاء شاباً صغيراً (انظر صفة الصفوة ⁄ ٢/ ٢٣٤) ونعلم كذلك أن سهلا أدرك خاله ، وانتفع منه ونقل عنه كثيراً من الروايات والأحاديث . ومن مراعاة هذه الظروف مكتملة إلى جانب حقيقة أنه مات كبير السن وقد تجاوز التسعين ، يمكن الحدس بتاريخ الوفاة تقريباً بعام ٢٠٩ أو ٢١٠ هـ . أما مولده فكان حوالى ١١٥ هـ .

(١) القشيرى — الرسالة ١٦ . (ص ٨٤ نشرة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف جـ ١) .

إننا نقول إن هذه الحادثة تشكل فعلا نقطة بدء عميقة الأثر فى حياة التسترى الروحية ، كما كانت النبع الثر الذى صدر عنه التسترى فى كثير من آرائه حول حقيقة الذكر ، ودوام الحضور ، والمثول بين يدى الله ، وحول قراءة وفهم القرآن وغير ذلك مما سنفصل القول فيه فى موضعه .

ومن الإنصاف القول بأن التسترى — عبر حياته كلها — ظل مخلصاً وفياً ومنفذاً تنفيذاً دقيقاً لروح هذا الدرس الذى تلقاه : مراعاة الحضرة الإلهية ، وثبات المشاهدة والمراقبة لله جل جلاله . ولئن صح ما تخبرنا به المراجع عن حفظه للقرآن فى السادسة أو السابعة ، فإن ذلك يدل بلا شك على إنجاز عظيم فى مثل هذه السن المبكرة ، غير أن المهم أن نلاحظ أن حياة التسترى الروحية كانت سلسلة تتتابع فيها الحلقات باستمرار دون ونى أو قصور أو فتور . لقد تناوبت عليه الطوارىء الفكرية والخواطر النفسية ، واضطرب باطنه ، وأخذ يتحرك بسرعة مذهلة ليثير قلقه وفضوله ، فيمسى ويصبح غادياً رائحاً يتلمس الحلول لما يواجهه من مشكلات نفسية وفكرية . ونرى تفاقم قلق النفس حول تلمس جواب شاف كاف فى مسألة خاصة حيرته وحيرت معه الكثيرين ، الذين عجزوا عن تقديم حل مرض له أولهم .

ويذكر ابن عربى هذه المسألة التى حيرته والتى أنفق فى البحث جواب لها وقتاً كبيراً دون طائل ، وأنها كانت حول « إمكان سجود القلب » وسنرى فيما يستقبل من صفحات عند عرض مذهبه وآرائه الأبعاد الحقيقية لهذه المسألة ، وتأسس المذهب برمته على التسليم بإجابة خاصة عنها .

لقد كان التسترى يحس وكأنما قد ثبت الخضوع والخشوع فى قلبه ، فلم يعد قلبه يتقن غير الخنوع والتذلل والتسليم والسجود . ولا نستبعد أن يكون التسترى قد أدرك مبكراً أنه إذا كان للبدن عبادة وحركة وعمل معين ، فلابد أن يكون للقلب كذلك عمل محدد معين . وبمحاولته تبين ما إذا كان السجود من الأمور التى يمكن نسبتها إلى القلب ، وهذا كما نرى اتجـاه إلى أعماق الباطن ، وهذا أيضاً ما نراه فى حياة سهل بعد ذلك : النزوع إلى الباطن واللب والجوهر ، وتطبيق ذلك فى مجالات كثيرة كما سيظهر من هذه الدراسة .

لقد مر التسترى — كما أسلفنا — بعلماء كثيرين يسألهم هذا السؤال « أيسجد القلب » ؟ . دون أن يحصل منهم على إجابة مقنعة مرضية ، إلى أن ساقته الأقدار إلى أبى حبيب حمزة بن عبدالله العبادانى ، ذلك الزاهد المعتكف فى عبادان فأعطاه ما سأل ، فأعجب به ولازمه مدة ينتفع فيها بتعاليمه وسلوكه وحياته الرتيبة .

ويخبرنا « التسترى » نفسه أنه بعد أن أقام مدة مع أبى حبيب ، عاد إلى تستر ليستأنف حياة الزهد (١) والعبادة ، بل ليزيد من قهر نفسه ، وحملها على التقشف حتى أنه — فيما يروى عن نفسه — كان ليكتفى بوزن أوقيـــة من خبز الشعير لليوم كله . بل تذكر بعض الروايات أن درهماً واحداً ربما كان كفاه عاماً كاملا .

لقد زاول التسترى صوم الوصال على هيئات متعددة ، فواصل الصوم ثلاثة أيام ، ثم واصله بعد ذلك خمسة أيام ، فسبعة ، بل حاول صيام خمس وعشرين ليلة ، وكان — فيما يذكر — يتفادى إثم الوصال بالإفطار على الماء القراح أحياناً . ويحكى التسترى عن نفسه أيضاً أنه طوف فى البلاد ، وضرب فى أطناب الأرض سنوات ، ثم عاد بعد ذلك إلى تستر ، حيث استأنف التهجد وقيام الليل كله فى الصلاة (٢) .

ويبدو من الإشارات التاريخية العابرة أن التسترى كان متزوجاً ، وأنه كان سعيداً بهذا الزواج ، كما يبدو أن زوجته كانت تشاركه حياة الزهد والتصوف . كما يتضح ذلك من الطريقة التى حاولت سلوكها فى تربية ابنها . لقد عودته أن يتجه فى كل مطلب « إلى الله » حتى أنه إذا سألها الطعام قالت

---

(١) كان سهل بهذا يعارض تيار الموسومين بالروحانيين الذين افتتنوا فى إمكان تبرير تناول اللذائذ ، ما ظهر منها وما بطن ، ما حل منها وما حرم ، ومن حجج بعضهم أن ترك الدنيا إشغال للقلوب ، وتعظيم للدنيا ومحبة لها « ولما عظمت الدنيا عندهم تركوا طيب طعامها ، ولذيذ شرابها ، ولين لباسها ، وطيب رائحتها ، فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها ، وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات عند اعتراضها حتى لا يشغل القلب بذكرها »(انظر أبو الحسن الملطى / التنبيه والرد . . ص ٩٢ ، ٩٣) .

(٢) انظر مثلا الرسالة ١٦ ، ١٧ (٨٤ ، ٨٥ جـ ١ من نشرة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود) .

له « اسأل الله » وبينما يقف الطفل متهيئاً لدعاء الله سبحانه ، تضع الأم الطعام سراً دون أن يعلم ابنها بأنها واضعته ، وهكذا تعوذ الغلام أن يلجأ فى كل شىء إلى الله (١) .

وبالرغم من صور الزهد العنيفة ، وأوجه التقشف الصارم التى زاولها التسترى فإننا لا نميل إلى الظن بأنه كان فقيراً ، كما توحى بذلك بعض أقوال الرواة ، فالواقع أننا نجد إشارات تاريخية تدل على أنه قد كان للتسترى ثروة — إن لم تكن كبيرة للغاية — فإنها لم تكن على وجه اليقين تافهة قليلة . فهناك مثلا إشارة إلى أنه تنازل عما كان يملك عندما عزم عزماً جاداً على الدخول فى الطريق الصوفى . لقد كتب أملاكه فى قصاصات من الورق، ونثرها على الناس ، وكلما أصاب واحد منهم قصاصة ورق أضحى ما فيها ملكاً له . ثم نجد إشارة أخرى إلى أن التسترى كان بطبعه سخياً « ينفق ماله فى طاعة الله ، وبالغ فى ذلك حتى أن أمه وإخوته شكوه إلى بعض الزهاد ، فأفهمهم التسترى بأن من يرغب فى الآخرة لا يترك فى الدنيا شيئاً » (٢) .

---

(١) انظر الهجويرى ترجمة نيكلسون ص ٣٦٣ . ويزيد الهجويرى أن الطفل عاد مرة وسأل الله ، ثم ذهب إلى الكوة التى تعود أن يجد فيها الطعام ، فوجد الطعام هناك كالعادة ، بالرغم من أن والدته كانت قد ذهبت لأمر ما ، ونسيت أن تضع له الطعام .

(٢) الجنة فى وصف الجنة / ٦٧ . ونسجل هنا شكنا التاريخى فى إمكان مقابلة التسترى لعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١١٠ هـ حيث يقال إن الشكوى كانت مرفوعة إليه . وانظر حول سهل : صفة الصفوة جـ ١ / ٤٦ — ٤٩ ، وفيات الأعيان ١/ ٢٧٣ سير أعلام النبلاء ٩ ق ١ ورقة ٧٦ ، المنتظم /٥/ ١٦٢ ، مرآة الجنان /٢/ ١٤٨ .

حول خروج سهل من تستر

يزعم كثيرون أن سهلا نفى إلى البصرة ، مطروداً من « تستر » بسبب رأيه فى « فرضية التوبة على كل إنسان » وأن هذا الرأى هو السبب الحقيقى فى حادثة الطرد . وظلت المراجع تردد هذا القول حتى أصبح شبه قضية مسلم بها (١) . وربما كان أكثر المؤيدين لهذا الاتجاه هو الشعرانى كما تدل على ذلك عبارته فى الطبقات (جـ ١ ص ١٣) حيث قال إنهم « أخرجوا سهلا من بلده إلى البصرة لأنه كان يقول إن التوبة فرض على الإنسان فى كل حال ، فوقف ضده الفقهاء لهذا السبب فقط » . وممن أكد ذلك أيضاً عبد الرؤوف المناوى فى الكواكب الدرية (٢) . أما فريد الدين العطار فيقتصر فى كتابه « تذكرة الأولياء » (٣) على القول بأنه اتهم بالإلحاد من أحد علماء أهل بلدته .

والحق أن استعراض كافة الظروف والملابسات التى أدت إلى حادث النفى أو الطرد تشير إلى أن هذا الرأى الخاص بلزوم وفرضية التوبة لم يكن وحده السبب الحقيقى الذى حمل على النفى أو الطرد ، بل قد كانت هناك عوامل وأسباب كثيرة تعاورت وتعاونت ، حتى أدت إلى هذه الحادثة المعروفة من الوجهة التاريخية . إن القول بأن التوبة أمر لازم ، وفرض ثابت ، ليس قولا فريداً أو غريباً أو مثارا لكل هذه الضجة التى أحاطت بالتسترى احتجاجاً ونفياً من البلاد ، فإن هذا القول فى الحقيقة ليس إلا ترديداً لموقف

---

(١) وقد أخذ بذلك كثير من الدارسين والباحثين حتى إن العلامة ماسنيون يؤكد ذلك فى كتابه « La Passiton » وما بعدها . ومن الصحيح أن سهلا أكد أن التوبة فرض ، وسجلت المراجع رأيه هذا . وقد نبه ماسنيون فى كتابه سالف الذكر على أن سهلا يعتبر « أول من قال فى الإسلام بفرضيتها فى كل وقت وعلى كل مؤمن » وعزا ذم العلماء لسهل فى الأهواز وهروبه إلى البصرة إلى مثل هذا الرأى فى التوبة . ويؤكد المكى (قوت القلوب /١ ص ٣٦٥) رأى سهل فى التوبة لكنه لا يذهب إلى أن هذا الرأى كان سبباً فى طرده .

(٢) جـ ١ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٣) جـ ١ ص ٢٢٩ .

صوفية كثيرين ، وعلى رأسهم الحارث بن أسد المحاسبي ، الذى لم يكتف بتأليف كتاب كامل فى « احكام التوبة » بل ذهب إلى فرضية التوبة ولزومها على الصوفية أنفسهم قبل الذهاب إلى النوم ، وليس على الفرد العادى فحسب.

وبالإضافة إلى ذلك فإن التسترى — رغم موقفه من ضرورة التوبة وحتميتها فى كل آن — قد عبر بما لا يدع مجالا للشك عن الروح المعتدلة والنظرة السمحة تجاه عامة الناس ، بل إنه لم يقف عند هذا الحد ، بل أشار فى بعض أحاديثه إلى الخير الذى يمكن أن يحدثه الله من ذنب المؤمن ، وكيف أنه قد يؤدى فى بعض الأحيان إلى حسنات لا حصر لها . ومن الأهمية بمكان إبراز هذه النزعة التفاؤلية فى نظرة التسترى إلى البسطاء من الناس . ويحتفظ أبو نعيم فى كتابه « الحلية » بنص رائع يكشف عن براعة سهل فى التعليل والحكم . يقول التسترى فيما يروى أبو نعيم « لا يذنب المؤمن ذنباً حتى يكتسب معه مائة حسنة ، فقيل له : يا أبا محمد ، وكيف هذا ؟ قال : نعم يا دوست (١) إن المؤمن لا يكتسب سيئة إلا ويخاف العقوبة عليها — ولو لم يكن كذلك لم يكن مؤمناً ، وخوفه العقاب عليها حسنة ، وهو يرى التوبة منها — ولو لم يكن كذلك لم يكن مؤمناً ، ورجاؤه لغفرانها حسنة ، وهو يرى التوبة منها ، ولو لم يرها لم يكن مؤمناً . ورؤيته التوبة منها حسنة . ويكره الدلالة عليها — ولو لم يكره الدلالة عليها لم يكن مؤمناً ، وكراهة الدلالة عليها حسنة ، ويكره الموت عليها — ولو لم يكره الموت عليها لم يكن مؤمناً ، وكراهته للموت عليها حسنة ، فهذه خمس حسنات وهى بخمسين حسنة ، الحسنة بعشر أمثالها لقوله تعالى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، فهذه تصير مائة حسنة . فما ظنكم بسيئة تعتورها مائة حسنة ، وتحيط بها ، والله تعالى يقول « إن الحسنات يذهبن السيئات » وما ظنكم بثعلب بين مائة كلب أليس يمزقونه ؟ . ثم بكى سهل وقال : لا تحدثوا بهذا الجهال من الناس فيتكلوا ويغتروا ، فإن هذه السيئة شيء عليه ، وحسناته هى أشياء له ، وما عليه فلله أن يأخذه به ، ويكون عادلا بعقوبته عليه ، وما له لا يظلمه الله عز وجل ، بل يوفيه

---

(١) دوست : كلمة فارسية ومعناها الصديق .

ثوابه وإن كان بعد حين . ومن يصبر على حر نار جهنم ساعة واحدة ؟ ! (١)

والنص كما هو وارد يصور بحق دقة ملاحظة سهل ، وبراعته الفقهية ، وقدرته على التميز بين فئات الناس ، وما يصلح لهم وما لا يصلح .

وفى ضوء بعض الوثائق والشواهد يمكن القول بأن الأسباب المجتمعة التالية هى التى أدت — على الراجح — إلى هذا الحادث المؤسف ، الذى يعتبر إهانة للفكر الحر ومجالا لسوء الاستغلال . ولعل من هذه الأسباب أولا . ذيوع الأنباء وانتشار الأقاصيص حول كرامات سهل ، وخوارق أفعاله مما أثار حفيظة رجال الدين فى موطنه — ولم يذكر عنهم مثل ذلك . فقد ذكرت بعض المراجع مثلا أن أهالى « تستر » تجمعوا ذات يوم يسألونه — ملحين فى السؤال — عما إذا كان من الصحيح أن الأشخاص رأوه فى مكة المكرمة ، مع أنه كان « بتستر » قبل ذلك بيوم واحد . الناس يلحون فى ضرورة الحصول على إجابة بالنفى أو الإثبات لهذا الخبر الذى عم البقاع . وتنقل إلينا المصادر أن التسترى لم ينف ولم يثبت هذا النبأ ، بل اقتصر على رجائه ألا يعيد السائل ذكر هذه القصة مرة أخرى . إن من المهم فى هذه الرواية أن يذكر أن سهلا عقب انتشار هذه القصة (قصة وجوده بمكة بعد وجوده بتستر بيوم واحد) اضطر إلى الهرب إلى جزيرة بين عبادان ، و « تستر » بحيث لا يمكن الاتصال به إلا بواسطة قارب (٢) .

وهذا يتفق مع وصف ابن بطوطة (٣) لمصلى سهل ومتعبده ، حيث يذكر أن هذا المتعبد يقع بين « البصرة » و « الأبلة » » وهو على بعد عشرة أميال من البصرة .

ويضيف ابن بطوطة إلى ذلك قوله : إن من عادة الناس إذا وصلوا هذا المكان ببواخرهم ، وقفوا للصلاة والدعاء وشربوا من ماء هذه البقعة تيمناً وتبركاً بصاحب هذا المتعبد سهل بن عبدالله التسترى .

---

(١) حلية الأولياء / ١٠ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) انظر الحقائق والرقائق / ورقة ٦٣ ب .

(٣) الرحلة / ص ٦٧ .

وأشيع في ندى أهل البلدة أيضاً أن سهلا زار في أوقات وجدة وانطلاقه الروحى الأماكن الأثرية ، ورأى آثار إرم وجبل قاف وغير ذلك من الأماكن حيث رأى شيخاً كباراً ، عاش عمراً طويلا للغاية ، حيث أدرك السيد المسيح والسيد الرسول صلوات الله وسلامه عليهما (١) .

وليس أقل من ذلك ذيوعاً خبر منزله نفسه . لقد لقب هذا المنزل «بيت السباع» ويخبرنا السراج ، في « لمعه » أنه أحب أن يستوثق من هذه التسمية ومبرراتها ، ولكنه تأكد تماماً من صحتها وذيوعها ، وأن أهل تستر لا ينكرونها على الإطلاق (٢) .

بل إن الهجويرى نفسه يحكى أنه إلى عصره هو كان منزل سهل ما يزال معروفاً ببيت السباع . وأن أهالى « تستر » أجمعوا على أن كثيراً من الحيوانات المفترسة اعتادت أن تأتى إلى سهل ليطعمها ، ثم تنصرف بعد أن تكون قد سدت جوعتها . ويضاف إلى ذلك ما أشيع أيضاً عن اتصاله بالجن (٣) . وقد يؤيد هذا بعض الشيء ما نجده لدى السراج عندما ينقل رأى سهل فى الصديق أو الولى الصحيح . كما يمكن أن يؤيده أيضاً ما يثبته ابن الجوزى من أنه يحكى عن سهل أنه قال إن الملائكة والجن والشياطين تحضر مجلسه . . . وأن الأهالى (أهالى تستر فى هذا السياق) أنكروا هذا وذموه ، فذهب أو هرب إلى البصرة » (٤) .

وهناك قصص أخرى كثيرة شبيهة بالقصص السالفة ، ويجمعها كلها أنها كانت تلقى الذيوع والانتشار السريع بين طوائف المجتمع المختلفة مما يمنح تأييداً لوجهة نظرنا نحو هذا السبب الأول من الأسباب التى أدت إلى نفيه أو خروجه من بلدته .

---

(١) انظر مثلا قوت القلوب / ٢ / ٧٠ ، وقارن التسترى / تفسير / ١١٠ (ط ١٣٢٦)

(٢) انظر اللمع / ٥٩٤ (نشرة نيكلسون) . كما يذكر القشيرى فى رسالته / ١٦٢ إطعام سهل السباع اللحم ثم تخليتها بعد ذلك .

(٣) كلام م ١٣٦ ب .

(٤) تلبيس إبليس / ١٦٧ .

ويضاف إلى هذا السبب الذي ذكرناه آنفاً فى نفى التسترى إلى البصرة سبب آخر لا يقل عنه شأناً ، بل إننا نراه فعلا جديراً بأن يثير حفيظة الكثيرين على سهل . أما هذا السبب الآخر فهو صدور عبارات صوفية ذات مدلولات معقدة ومتشابكة ومثيرة للعديد من التساؤل ، والكثير من غضب العلماء . وهذه العبارات تدخل فى نطاق ما نطلق عليه « الشطحات » وأمثالها مما حمل هؤلاء العلماء — وجلهم من علماء الظاهر — على مقاومة التسترى واتهامه بالإلحاد والزندقة .

إن بعض هذه العبارات يحمل قدراً لا يستهان به من الجرأة والجسارة ، لا سيما فى نظر أمثال هؤلاء العلماء الذين لا يرون أى تعديل فى المأثور والمنصوص عليه حرفياً . فمن هذه العبارات مثلا ما قد يفهم منه التسوية بين الخالق والمخلوق فى مثل قول التسترى « مولاى لا ينام وأنا لا أنام »(١) وقوله : حالى فى الصلاة وقبل الصلاة واحد .

وعلاوة على ذلك فهناك مراسم الزهد وأعباؤه الشاقة التى مارسها سهل فى حزم وقوة وتطرف ، مهما كان فى ذلك من إعنات . وقد تحدى العلماء — هؤلاء العلماء أنفسهم — أن يحققوا بعض ما حقق هو من ألوان الزهد . ولقد أراد التسترى بذلك أن يثبت للعلماء عجزهم عن مجاراته فى الزهد نظراً لتعلق هؤلاء بأمور الدنيا ، وعدم قدرتهم على تطويع نفوسهم ، وتربيتها تربية حازمة كاملة ، تستجيب فيها لنداء الروح والعقل قبل استجابتها لنداء الطين والجسد . والأكثر من ذلك أننا نرى التسترى أحياناً وكأنه يفخر ويباهى بمدى تحمله صور الزهد المختلفة حتى إنه ليصف نفسه فى بعض المناسبات بأنه . حجة الله على خلقه(٢) » وهذه العبارة بالذات أثارت العلماء أيما إثارة ، مما حدا ببعضهم إلى اقتحام دار التسترى محنقا مغيظا صائحاً فى وجهه « هل أنت نبي أو ولى ؟ »(أى حتى تكون حجة على الناس) . وقد أجاب التسترى بأنه لم يكن يقصد إلى شيء من هذا ، ولا يدعى أن وظيفته مماثلة لهؤلاء .

---

(١) اللمع / ٣٩٤ (نشرة نيكلسون) .

(٢) ورد فى تفسيره / ٧٠ أنه كان يقول « أنا حجة الله عليكم خاصة وعلى الناس عامة » .

ولكنه أراد أن يبين أنه قد صحح قوانين تناول الحلال ونفذها بكل دقة ، متحرجاً من أدنى الشبهات ، محترساً من أخفى أنواع الزلل حتى فى المباح : فلما سئل عن كيفية التحقيق الدقيق لمبدأ تناول الحلال والبعد عن الشبهات — فضلا عن الحرام ، أجاب بأنه قسم عقله وعلمه وطعامه إلى سبعة أقسام وأنه ليمتنع عن الطعام حتى يقارب زوال الأجزاء الستة ، ويقارب الموت فيضطر إلى الأكل الضرورى المقتصر على ما هو أساسى « لئلا يكون عوناً على نفسه » (١) (أى فى الانتحار) .

ومن بين الأسباب التى أدت أيضاً إلى نفى سهل إلى البصرة انتقاداته اللاذعة لطوائف كثيرة من العلماء . لا سيما اتهامه إياهم بعدم الوفاء بقواعد دينهم من الإخلاص والورع والتقوى ، مما يشكك المجتمع فى أهليتهم للإرشاد والهداية والقدوة الحسنة ، وذلك ولا شك يضر بمصالحهم المتعددة والمتشابكة.

لذلك رأى أمثال هؤلاء أن من الخير إبعاد مثل هذا الشخص الذى يطعن سمعتهم ويستأصل أصول احترامهم وتقديرهم من قلوب العامة والشعب فى مجموعه .

وربما كانت هجمات التسترى أشد على القراء والفقهاء (٢) . رغم تصال هؤلاء بمصادر التشريع مباشرة . بل إن الصوفية أنفسهم لم ينجوا من نقده اللاذع ومن حملته الشديدة . وأقرب اتهام وآلم نقد يوجهه التسترى إلى الصوفى هو الدعوى والادعاء ، والزعم بالوصول إلى مراتب تدل عليها رقائق العبارات ، ودقيق الإشارات ، دون تجربة صحيحة ، ومثل هذا

---

(١) انظر الشعرانى / الطبقات / ١ ص ٦٧ « لئلا أكون قد أعنت على نفسى ».

(٢) الواقع أن مهاجمة سهل للقراء عنيفة للغاية ، لكن تهجمه عليهم لم يكن لمجرد تخصصهم مطلقاً ، بل لعدم تساوق تخصصهم مع سلوكهم . . ومن قبل التسترى نجد إياس بن معاوية يعبر عما يقرب من هذا عندما استشاره عمر بن عبد العزيز وسأله أن يدله على قوم من القراء ليوليهم . يقول إياس « إن القراء ضربان : ضرب يعملون للآخرة ، وأولئك لا يعملون لك ، وضرب يعملون للدنيا — فما ظنك إذا مكنتهم منها . فقال : ما أصنع ؟ قال : عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأنسابهم » (انظر التوحيدى / البصائر والذخائر مجلد / ١ ص ٧٦ تحقيق د. الكيلانى إبراهيم) .

الصوفى الذي يظن أنه يرقق العبارة ، ويدقق الإشارة قد وصل إلى الحقيقة ، إنما يدعي ويتقمص أحوالا لم يبلغها على الحقيقة ، وإنما قطع القليل وفعل الأقل ويحدث الكثير .

ويسهب سهل فى نقده لطائفة خاصة من طوائف العلماء ، وقد سمى أهلها « بعلماء السوء » الذين لا يهتمون إلا بالمشاكل والشبهات والجدليات ، ويجدون لذة عظيمة فى تصنيف الأقوال وترديدها وتنميقها وتزويقها . وليس لديهم مانع من التحدث والدفاع عن آراء ومذاهب متباينة ، محبة فى الجدل ذاته ، لا رغبة فى الوصول إلى الحقيقة ، أو معالجة هذه المشاكل وإزالة تلك الشبهات . ويصفهم التسترى بالإهمال فى الواجب والحرص على الحق .

ويستعرض سهل بحق العديد من الصفات المنفرة لدى هؤلاء وأشدها أنهم يتلمسون السبل المختلفة للافلات من الأحكام الصريحة القطعية ، بابتداع ما شاءوا من الحيل والرخص ، أو بتحريف الكلم عن مواضعه . وهم — فى نظر التسترى — يستغلون الخلافات ، غافلين تماماً عن الروح الأصيلة للدين نفسه ، وهى روح الإخلاص والطهر والبراءة . ويقول : إن هؤلاء يظنون أنهم بهذه الوسائل يخدعون الناس ، ولم يعلموا أنهم بذلك إنما يحاولون أن يخادعوا الله سبحانه ، وهنا يعجب سهل إذ كيف يمكن أن يخدع الله جل جلاله بأفعال أو أقوال هؤلاء ؟ .

إنهم — كما يقول التسترى — طلاب سماعون للأقاويل والاختلافات . وهؤلاء وأشباههم هلاك الأولين والآخرين على أيديهم ، وهم علماء السوء . ولهؤلاء ثلاث عقوبات فى الدنيا ، وفى هذه الثلاث جميع العقوبات داخل فيها وهي فقدان علم الورع ، وسلب الخشوع ، وتزين له الدنيا فيرغب فيها ، ويغتر بها ويطلبها سمعة ورياء ، ويحكم التسترى على الواحد من هؤلاء بأنه « لو يعطى جميع الدنيا لأخذها فى هلاك دينه ولا يبالى » (١) .

أما القراء فعظمهم فى نظر التسترى يحاكون المغنين فى ترديد الأنغام

---

(١) انظر كلام ٦٦ ا .

والألحان مما يصرف عن الهدف الأساسى من الاستماع إلى القرآن ، وهو الاتعاظ وتطهير السلوك بناء على تعاليم هذا القرآن العظيم ، كما أنهم لا يبدون تواضعاً أو خشوعاً ، ولا يودون توبة مما هم عليه من انحراف وفساد . (١)

ولم ينج الصوفية — كما أسلفنا — من نقد التسترى القاسى ، فهناك منهم — فى رأيه — من لم يرتفع فعلا فى حياته الروحية إلى المستوى اللائق ، ومع ذلك فهم يتحدثون عن وصولهم إلى ما لم يصل إلى مثله غيرهم ، قانعين بهذه النشوة الطارئة التى تخدعهم عن مستواهم الحقيقى فى ميدان التصوف . وفى نغمة ساخرة يذكر التسترى أنه لم ير فى حياته أروح أبدانا من هؤلاء المدعين فى طريق التصوف ، ويضع التسترى يده على العلة ، حين يذكر دعوى هؤلاء التوكل دون العيش على مقتضى روحه ، ودعواهم الكشف ، على حين أن كل ما يتحدثون به منقول من الآخرين . فهم يقنعون بالجانب النظرى لأنه أخف وأروح « وينصرفون عن الجانب العملى لأنه أشق وأثقل » وآية ذلك تراخيهم فى تطبيق مبدأ التوبة فى حياتهم ، فهم يأتون بالعاب ، ولا ينوون منه المتاب . وهؤلاء فى نظر التسترى أسوأ حالا من كثير من أفراد الطوائف الأخرى لضخامة مسئوليتهم ، وسنوح الفرص العريضة لرقيهم الروحى ، وإخلاصهم لله ورؤيتهم القدوة . يقول التسترى فى حق هؤلاء « لا أعرف فى الدنيا قوماً أروح أبدانا من الذين يدعون هذا الطريق : هم فى روح ومرور ، لأنهم أسقطوا من أنفسهم العبودية ، واستراحوا ؛ فلا ضربا (فى الأرض) يضربون ، ولا محرك يحركهم . هم أشد من الزنادقة ، لأن الزنديق تضربه وتحركه ، وهم يتكلمون فى وجدان القلوب ويتلذذون به ، ويكذبون ويغتابون ويفجرون ولا يبالون ، فضلوا وأضلوا (٢) .

وفى غضبة جموح يصرخ التسترى فى جلسائه قائلا « اشهدوا على أن من دينى ألا أتبرأ من فساق أمة محمد وفاجرهم وقاتلهم وزانيهم وسارقهم وأتبرأ إلى الله ممن يدعي التوكل » (٣) .

---

(١) انظر التسترى / تفسير ٦ ط (قارن ط ١٩٠٨ ص ٨) .
(٢) كلام ١٠٤ ا .
(٣) نفس المرجع .

والواقع أن موضوع الدعوى وما يتعلق بها من مظاهر ونتائج قد طرقه سهل فى مناسبات كثيرة ، حتى أضحى فى غاية البروز فى تعاليمه وآرائه . ومن الطبيعى أن تكون كل هذه المواقف والظروف مجتمعة ، مؤدية إلى ما أدت إليه من طرد سهل أو خروجه من تستر ، لأنها أثارت طوائف كثيرة من الفقهاء والعلماء والصوفية أنفسهم . هذا إلى جانب العبارات الغامضة التى أشرنا إلى بعضها فيما سلف والتى سنعرض للكثير منها عند عرض مذهبه كاملا .

ومما تنبغى الإشارة إليه أن هناك ما يفيد أن هروب أو طرد سهل من تستر قد تكرر فى أوقات مختلفة ، مما يدل على تجدد أسباب الهروب أو الطرد . ويصح أن يكون هناك طرد فى حالة أخرى ، لكن ما يجب التنبه له هو أن هروبه الأخير إلى البصرة كان على الأرجح أثناء ثورة الزنج التى ابتدأ اندلاعها تقريباً من عام ٢٥٥ ـ ٢٦٨ هـ / ٨٨٣ م (١) .

إننا نرى أن الهروب أو الطرد لم يتم إلا نتيجة إثارة طويلة لطوائف العلماء والفقهاء والصوفية أثناء إقامة التسترى فى تستر ، وفى مثل هذا الوقت كان بدء تتلمذ الحلاج على سهل (٢) .

ولم يكف التسترى فى هذا المجتمع الجديد بالبصرة عن هجومه وانتقاده لطوائف من العلماء ، غير أن نقده فى هذا الطور يبدو أكثر إيجابية وموضوعية وربما كان لثورة الزنج فعلا صدى فى نفسه ، مما جعل نقده يتخذ اتجاهاً سياسياً ، ـ وإن شئت قلت ـ حركياً يتصل بقيادة الناس وتوجيههم . ومن أمثلة أوجه النقد التى وجهها التسترى إلى الكثير من العلماء موقف هؤلاء العلماء من السلطان . فهو موقف منافق متهافت يتسم بالسلبية والاستخذاء . فهم يكثرون من زيارة السلطان ، ويتهافتون على موائده العامرة بالطيبات واللذائذ ، وتلك بدورها تصرفهم عن أهم واجباتهم الأساسية ، وهى نصح السلطان وصرفه عن الظلم وأمره بالعدل والإحسان . ولذا يكثر التسترى من

---

(١) انظر ابن العماد / شذرات / ٢ ص ١٢٩ .

(٢) انظر ماسنيون P23 ، La Passion

لعنة هؤلاء ، ناسباً إليهم معظم الجرائم التي يرتكبها الحاكم ، لأنهم هم الذين شجعوه ، وتركوا له باب الظلم والإجحاف مفتوحاً ، دون أن ينبسوا ببنت شفة ، مخافة أن تزول عنهم هذه المتع التي يغدقها عليهم السلطان : وحقيقة الأمر فى نظر التسترى أن هؤلاء قد باعوا دينهم لقاء هذه المتع العابرة وما أخسرها من صفقة .

والواقع أن التسترى يرسم صورة قاتمة السواد لمعاصريه من العلماء الذين يسمهم بأنهم علماء سوء . وهو ينبهنا إلى أن السبب الرئيسى لفساد هؤلاء يكمن فى عدم تطبيقهم لقواعد ومبادىء المعرفة الصحيحة التى حصلوها ، فهم مجرد نقلة وحفظه لعلم لا يعرفون قيمته ، ولا ينهضون بمستواه . ولم تكن صورة المستقبل فى نظر سهل أكثر إشراقاً ، أو خيراً أملا . وهو فى هذا متشائم للغاية حيث توقع الانهيار وشيوع الفساد بذيوع الشعر والموسيقى والغناء لتحل محل القرآن . وفى نغمة حزينة يذكر التسترى أنه إذا ظهرت الأمارات الآتية فى مجتمع ، فليكف الفرد عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وليقتصر على إصلاح نفسه ومن هو أقرب إليه ، إذ أن ذلك هو الطريق الوحيد للخلاص .

أما هذه الأمارات التى عددها التسترى فهى ظلم الحاكم ، وقبوله الرشوة واتباع العلماء له ، وعدم مراجعتهم إياه ، فخورين بصحبته ، معتزين بجاهه وقوته . ونعتقد أن التسترى لابد أن يكون قد رأى صوراً كثيرة من مثل هؤلاء الأفراد ، ويظهر أن نغمته التشاؤمية تلك إنما بنيت على إطباق هذه الظاهرة فى الذيوع والانتشار (١) .

ومما لاشك فيه أن معظم عبارات سهل المتنبئة بفساد المستقبل مبنية فى الغالب على تأملاته فى أحوال مجتمعه الذى عاش فيه . وإذا راعينا أن التسترى قد عاش عمراً لا بأس به (حوالى الثمانين) لم يدهشنا أن نجد لديه هذه الصورة العابسة لعصره وما يتلو عصره ، وذلك لأن المجتمع العباسى كان فعلا فى حركة وتطور سريعين للغاية . وكان تنوع ألوان المتع المتاحة سبباً فى تغير

---

(١) انظر النص الحالى

عادات الكثير من الناس ، وخفت قبضتهم على القيم التى كان يقدسها السابقون . وسنعلم من هذه الدراسة كيف كان التسترى يضيق ذرعاً بمن يريد أن يبرز فى الجانب النظرى ، أى بأن يكون عالماً عارفاً ملماً بكثير من المعلومات والمعارف ، دون أن تكون له تجربة ، أو دون أن يكون على الأقل منفذاً لواجبات ومقتضيات علمه ومعرفته . حتى رواية الحديث النبوى الشريف وإثباته وتدوينه لم تكن فى نظر التسترى قربة إلى الله إلا أن يصحبها إخلاص وعزم على تنفيذ ما يدعو إليه الحديث أو التأدب بآدابه . لقد جاءه رجل ذات يوم فسأله عن حديث بعينه ، فذكره التسترى وبين للسائل أنه صحيح . عندئذ سأل الرجل سهلا عما إذا كان يمكنه أن يرويه عنه ويحدث الناس به . فأجابه التسترى بقوله « ولم لا تعمل به وهو الأصل ؟ » ومراد التسترى أن ينبه الرجل إلى ألا يصرف همه كله فى جمع المعلومات واكتناز المعرفة ، من غير أن يؤيدها السلوك الحسن المبنى على هذه المعرفة الجليلة .

حقاً ، لقد رأى التسترى فى حياته هزات سياسية واجتماعية عنيفة ، هزات أطاحت بالكثير من المبادىء والقيم ، واستحدثت مبادىء وقيماً أخرى . وهذه الهزات وإن لم تطح بكل القيم ، إلا إنها على الأقل زعزعتها ، وصرفت الناس رويداً رويداً عنها .

لقد رأى التسترى مثلا ثورة الزنج — وقد كان بالبصرة أثناءها وعرف ما فعله الثوار بأرواح وممتلكات الناس — صحيح أنه لم يتخذ موقفاً إيجابياً من هذه الثورة . حتى حين هرع إليه الناس يسألونه أن يدعو الله برفع هذا البلاء عنهم ، ظل صامتاً لفترة ، ثم خرج عن صمته ليبين لهؤلاء الناس أن بالبصرة أناساً لو دعوا الله على الظالم لما بقى ظالم واحد على الأرض ، ولكنهم لا يفعلون ذلك تأدباً مع الله ، ومجاراة لإرادته (١) .

إن النغمة التى تكمن وراء كلام التسترى هى نغمة اللوم لمجتمعه نفسه . وللناس أنفسهم . فكأنهم بفسادهم وانحلال علمائهم وانخراطهم فى سلك اللهو والبذخ قد جروا على أنفسهم هذا البلاء العنيف . لكن سهلا من الناحية

(١) راجع المكى / قوت القلوب /٢/ ٧١ .

العملية قد فتح داره لاستقبال اللاجئين والتسرية عنهم قدر المستطاع . وكم كنا نود أن نعثر على نصوص توضح لنـــا موقفه التفصيلى من هذه الثورة بالذات ، لنحقق فرضاً كنا — وما زلنا محتفظين به — حتى يظهر لنـــا من النصوص ما يؤيده ،وهذا الفرض يتعلق باتجاه التسترى السياسى ، وإن كنا سنعرض فى حينه إلى بعض جوانب هذا الاتجاه ، كما سنناقش فكرة تشيع سهل فيما يلى من دراسة (١) .

(١) ليس هناك ما يدل على ميول شيعية سياسية لدى سهل ، بل إن هناك نقمة عليه من الخوانسارى لعدم تشيعه . غير أن أبا نعيم (حلية / ١٠/ ٢١٤) أورد حديثاً رواه سهل عن الإمام على ، حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « إنه أعطى فى على خمسا . . . الخ » .

(٢)
« أصدقاء سهل ومعارفه »

نعم التسترى كغيره من الصوفية بصحبة عدد كبير من العلماء والصوفية ، منهم من توطدت بينه وبينهم أوثق روابط الود والإخاء حتى الموت ، وعلى رأس هؤلاء « ذو النون المصرى » — صوفى مصر الأول العظيم ، وحسبك أن يسجل المؤرخون لقاءهما بمكة أثناء الحج (١) ، وإن كنا لا نعرف بالضبط هل هذا اللقاء الذى سجله المؤرخون وأشاروا إليه كان أول لقاء بينهما أثناء أداء التسترى لحجه الأول ، وكان عمره آنذاك ست عشرة سنة ، أم أن هذا اللقاء لم يكن إلا واحداً من اللقاءات المتكررة بين الصوفيين العملاقين فى أزمنة وأمكنة مختلفة ؟ .

ولكن هذا لا يحول دون تأكيد وثوق أواصر الصداقة بين الاثنين ، كما يبدو أن لقاءاتهما لم تكن مقتصرة على موسم الحج . بل قد يفهم من بعض النصوص أنهما تبادلا الزيارات فى بلديهما على التناوب . فابن سالم مثلا يذكر أن رجلا زار سهلا ذات يوم وظل يسأله عدة أسئلة « ولما وصفه سهل لنا عرفنا أنه ذو النون المصرى » (٢) غير أن ابن سالم لم يذكر أين كانت تلك الزيارة ؟ أكانت بتستر ، أم بمنفى التسترى فى « البصرة » ؟ وإن كان الاحتمال الثانى أقوى لأن أبا نعيم الأصبهانى يتحدث عن زيارة ذى النون للعراق ومحاضرته فى سر من رأى (سرمرا) (٣) .

ومن جهة أخرى ورد أيضاً نبأ عن زيارة سهل لذى النون فى القاهرة وقد نقل هذا النبأ جلال الدين السيوطى . ويضاف إلى ذلك أن الصلة لم

---

(١) مثل القشيرى فى رسالة ص ٦٦ ، ابن خلكان / وفيات ١/٣٨٩ ، الخوانسارى ، روضات الجنات ص ٣٢٤ . والشعرانى فى طبقاته ١٠/٦٦ وأبو نعيم فى الحلية ١٠/١٩٠ .

(٢) المعارضة والرد ٢٠٦ ب

(٣) وتوجد إشارة فعلا إلى ذهاب ذى النون إلى البصرة حيث يرون عنه أنه قال « رأيت سعدون (سمنون ؟) فى مقبرة البصرة فى يوم حار وهو يناجى ربه ويقول بصوت عال « أحد أحد » (انظر الحلية ٩/ ص ٣٦٣ ، ٣٦٩) .

تنقطع بين الاثنين من خلال رحلات تلاميذهما المنتظمة من وإلى القاهرة . وقد كان هؤلاء التلاميذ بمثابة حلقة اتصال دائم بين الشيخين . وإن مما يلفت النظر حقاً علو تقدير وتبجيل التسترى لذى النون لدرجة أنه — فيما تذكر الروايات عنه — رفض أن يتحدث فى شىء من معانى التصوف أو المسائل الروحية طالما كان ذوالنون فى الأحياء . وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً ، وسنرى فيما يستقبل من دراسة عن مصادر التسترى لدى ذى النون .

ومما ينبغى تأكيده فى هذا الصدد هو وثوق الصلة بين ذى النون والتسترى لدرجة تنبىء عن تلاق روحى تام ، وتساوق كامل فى المشاعر والأحاسيس ، حتى إن هناك من القصص ما يشير إلى أن بينهما ما يعرف الآن بظاهرة « الاتصال الروحى » Telepathy ويروى العطار أنه حدث أن شعر بألم فى موضع معين من قدمه ، فربطه بضمادة ظلت على الموضع ما يقرب من أربعة أشهر ، وقد رأى أحد الصوفية — ممن يسفرون بين التسترى وذى النون — الضمادة على قدم سهل ، ثم تركه إلى القاهرة ليجد ذا النون يضع ضمادة هو الآخر على نفس الموضع من قدمه ، وقد سأله هذا الصوفى متى وضع هذا الرباط فأخبره بما يدل على توافق فى التاريخ بين الحادثين . وتمضى القصة لتقول إن هذا الصوفى أخبر ذا النون بأن التسترى يضع الضمادة على نفس هذا الموضع فى نفس هذا التاريخ تقريباً ، وعندئذ قال ذو النون « إن « سهلا » رجل يقاسمنا ويشاركنا المشاعر » (٢) كما أن القصة المأثورة عن بدء تصدر سهل للحديث فى مسائل التصوف تشير فى نهايتها إلى إحساس سهل بوفاة ذى النون (٣) قبل أن يذاع الخبر وينتشر فى البصرة وبغداد .

وسيمر بنا أثناء هذه الدراسة مواطن الالتقاء بين آراء التسترى وذى النون بما يتيح لنا فى ضوء الظروف التاريخية المتعلقة بهما أن نحكم بإفادة الأول

---

(١) من كتاب « الدر المكنون فى مناقب ذى النون» ورقة ٣ ب (مخ رقم ٤٨٦٥ من مجموعة تستر بيتى بدبلن) .

(٢) تذكرة الأولياء / ١ ص ٢٢٩ .

(٣) يروى القصة أبو نعيم فى الحلية ١٠/١٩٣ . ويعزز السراج (اللمع ١٨١) صدر القصة فيما يتصل بتعليل عدم تحدث سهل فى مسائل التصوف قبل ذلك .

من الثانى حول هذه الآراء (١) .

ومن أخلص أصدقاء سهل وأقرب تلامذته إلى قلبه ونفسه أبو عبدالله (٢) محمد بن أحمد بن سالم المتوفى عام ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م . وقد ورد فى بعض النصوص أنه ظل فى خدمة سهل وصحبته ما يقرب من ستين سنة (٣) مما يعنى أنه عرف سهلا فى ريعان شبابه .

وتدل الإشارات التى وعتها كتب التاريخ عن ابن سالم هذا على أن روحه العامة ومزاجه الصوفى كانا يتسمان بالتؤدة والبطء ، كما أن تقدمه فى حياته الروحية كان فى غاية من الرزانة والهوادة بدرجة قد يخطئها ملاحظوه . ولإيضاح ما نعنيه يجدر بنا أن نوجه أنظارنا إلى الحلاج — حتى إبان تتلمذه على سهل . لقد أظهر الحلاج طبعاً ومزاجاً يختلف تمام الاختلاف مع ابن سالم . فطابع الحلاج يمكن أن يوصف بالحدة والثورية والانطلاق الجسور ، حيث أعلن ظفره بالاتصال الصوفى وعلت نبرته فى مجال المعرفة وإدراك الحقائق فى زمن وجيز ، بل اتسم هذا الطابع بين آونة وأخرى بالتمرد والتأبى على الامتثال للقواعد المأثورة . أضف إلى ذلك أن كثيراً من أحاديث الحلاج إلى زملائه السائرين فى طريق التصوف لم تكن تخلو من مرارة العتب والنقد والاستخفاف بمنجزاتهم .

أما ابن سالم فإنه خدم سهلا بإخلاص نادر ، وإيثار وإنكار ذات عز نظيرهما . لقد خدم سهلا فعلا فى جميع شئونه الخاصة والعامة (٤) . غير أننا نلاحظ أنه رغم هـــذه الخدمة الطويلة كان يتلقى من سهل بين الحين والحين تعليمات بقصد إصلاح نفسه وتطويع سلوكه ، يتلقى هذا النصح واللوم بنفس راضية ، ترى أهليتها للوم مهما كانت صافية .

إن قبوله لتوجيهات سهل ونقده وتعنيفه أحياناً ، كان مشبعاً بروح

---

(١) انظر فصل مصادر التسترى . .

(٢) انظر الحلية / ١٠ ص ١٨٩ وما بعدها .

(٣) انظر التفسير / ٩٩ وقارن اللمع / ١٧٧ .

(٤) حتى إنه كان يقوم بإعداد الطعام لسهل وضيوفه . انظر مثلا التفسير / ١٣٣ .

الامتنان والطاعة لأستاذ يعتقد بوجوب تنفيذ نصحه ، وإطاعة أوامره بكل دقة وأمانة . لذا لا عجب أن نرى التأثير البالغ الذى تركه سهل فى هـذه الشخصية الصوفية : ابن سالم وولده أبى الحسن .

والحق أن وفاء ابن سالم وحكمته وكمال شخصيته ينعكس بوضوح فى وصفه للصديقين والأولياء إذ يقول « يعرف الأولياء بين الخلق بطيب اللسان ، وكرم الأخلاق وبشاشة الوجوه ، وسخاء النفس ، وقلة الاعتراض ، وقبول عذر كل إنسان ، وهم يعاملون الخلق بالرفق صالحين أو طالحين »(١) .

ويبدو أن ابن سالم واجه فى حياته الروحية صعوبات فائقة كان أكثرها استعصاء محاولة التطبيق الكامل نظرياً وعملياً لرأى سهل فى « التوكل » . هذا المبدأ الذى تشدد فيه سهل غاية التشدد . إننا نرى أنه كثيراً ما يحذره سهل من الإخفاق فى الوفاء بمقتضيات هذا المذهب وفاء كاملا دون قيد أو شرط(٢) ودون تحفظ أو خوف . وربما كان هذا هو السبب الرئيسى الذى جعل ابن سالم يضع مذهب التوكل على قمة المبادىء التى تتركز عليها تعاليمه الصوفية . ونحن نراه لم يبعد فى هذا الاتجاه كثيراً عما رآه سهل كما سيتضح ذلك من الدراسة .

أما ابنه أبو الحسن أحمد بن محمد بن سالم فإننا نعرفه جيداً من خلال الأنباء المنتثرة عنه فى بعض المراجع العربية ، إلى جانب التقاريظ التى أفاضها عليه تلميذه أبو طالب المكى (٣) — محمد بن على بن عطية الحارثى — وتذكر المراجع أن أبا طالب المكى دخل البصرة بعد وفاة ابن سالم (الأب) وقبل مذهبه (لعله الابن) وقد وعظ الناس هناك فى المسجد ، « فرفضوه بعد أن سمعوا منه ما صرفهم عنه ، ونفرهم منه » . . ويذكر المقدسى أن من الأقوال التى أثارت نفور الناس وكراهيتهم قوله « ليس أضر على الخلق من الخالق » وقد توفى المكى عام ٣٨٦ هـ . ويعترف المكى بأنه مدين لابن

---

(١) السلمى / طبقات / ٤٣١ (ط برل ١٩٦٠)

(٢) انظر مثلا التفسير / ٣٨ .

(٣) انظر ابن خلكان / ١ ص ٦٨٩ (ط ١٨٦٢ باريس) .

سالم (١) بالكثير من ألوان المعرفة الصوفيـــة . والواقع أن المكى يعرض علينا بوضوح أبرز الصفات التى يتحلى بها ابن سالم ومنها الحصافة والحذر والحرص . وذلك فى القصص التى يرويها . فقد حكى مثلا أنه كان من عادة ابن سالم أن ينتقى أصحابه ورفاقه من بين هؤلاء الذين يعتبرهم ذوى كفاءة روحية ، ومقدرة واستعداد لقبول تعاليمه ، وكان يسمح لهم بعد ذلك أن يخوضوا فى نقاش صوفى مهما كان الوقت ليلا أو نهاراً (٢) .

ويحكى أيضاً أن أبا بكر بن الجلاء كتب مرة إلى الحسن بن سالم يسأله عدة أسئلة حول الحقائق الصوفية الدقيقة السرية ، فلما وصل الكتاب إلى ابن سالم قرأه ثم نحاه جانباً ، وطلب حضور كاتب الرسالة ، فلما قيل له إن كاتبها مقيم بمكة ، قال على الفور : أنا لا أجيب على هذا كتابة ، أخبروا هذا الرجل أن يأتى إلى هنا إذا أراد (٣) .

وفى مناسبة أخرى قيل لابن سالم : إن الناس ينتظرونه بالمسجد متشوقين لحديثه وسماع تعاليمه الصوفية ، فلما أخبر بعددهم — وقد علم أنه كبير — رفض أن يخرج إليهم ، وقال : إن هؤلاء ليسوا أصحابى ، إنهم أصحاب المجلس . وقد علق المكى على ذلك بقوله : ربما رأى ابن سالم من عددهم أنهم عامة لا يرتفعون إلى مستوى حديثه أو علمه الخاص الذى لا يقوى على إدراكه أمثال هؤلاء ، ولم يشأ ابن سالم إضاعة وقته معهم (٤) .

ويحدثنا الذهبى عن ابن سالم هذا (الابن) فيقول : إنه صاحب أحوال وتقشف وله صحاب ومحبون . وقد كان أستاذ الناس فى البصرة فى عصره ؛ وعاش طويلا، وقد أدرك سهلا التسترى ، وتلقى منه بعض التعليمات الروحية، حيث إن والده كان تلميذاً لسهل (٥) . ولكن الذهبى يتجاوز الحقيقة حين

(١) راجع مثلا المكى / قوت — ١/ ١٥٥ ، ١٥٧ .
(٢) نفس المرجع / ١٥٦ .
(٣) قوت / ٢/ ٧٧ .
(٤) نفس المرجع / ١ ص ١٥٥ .
(٥) الذهبى / تاريخ الإسلام ورقة ٧١ ب (مخطوط رقم ٤٨ شرقيات بالمتحف البريطانى)

يذكر أن أبا الحسن هذا ظل حياً حتى عام ٣٩٠ من الهجرة ، وقد كان عمره تسعين سنة . إن هذا القول الذى يحدد تاريخ وفاة أبى الحسن بعام ٣٩٠ ﻫ لا يمكن أن يتفق مع القول بأنه تلقى من سهل بعض التعليمات الصوفية : لأنه إذا صح أنه قابل سهلا(١) وأخذ عنه شيئاًمن المعرفة الصوفية، فلابد أن يكون ذلك قد تم قبل عام ٢٨٣ ﻫ وهو العام الذى يرجع لوفاة سهل . وفى الحقيقة يجب أن يكون ذلك قد حصل عشر أو خمس سنة قبل هذا التاريخ ، حتى يمكن تصور إمكان تلقى ابن سالم مثل هذه التعليمات .

إن الخطأ فيما يبدو يرجح أن يكون مقصوراً على تحديد تاريخ وفاةابن سالم الابن ولا نستبعد أن يكون الخطأ مطبعياً ، ولذا نقترح ، أن يعدل إلى ٣٦٠ﻫ ٩٧٠م ويحدد عام ٢٧٠/٨٨٣ لتاريخ ميلاده . ومما يرجح هذا ما نقله الذهبى نفسه من أن أبا سعيد محمد بن على النقاش المتوفى عام ٤١٤ رأى ابن سالم وسمع منه أثناء إقامته بالبصرة وذلك فى حدود عام ٣٥٩ ﻫ/٩٦٩ م (٢) .

« الحــلاج »

ومن التلامذة الذين حظوا بإشراف التسترى الروحى هذا الصوفى الأشهر الذى أثار ثائرة الدنيا ، وختم حياته بهذه المأساة الخالدة فى تاريخ التصوف الإسلامى . أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج الذى ولد حوالى عام ٢٤٥/ ٨٥٩ بالبيضاء قرب الحدود الجنوبية لإيران ، والذى قضى حياة طفولته فى « واسط » إحدى المدن العظيمة بالعراق آنذاك .

لقد انخرط الحلاج فى سلك الناشدين لإرشاد التسترى وهو صغير لم تكتمل مرحلة شبابه بعد ، بل وربما لم تكن تتجاوز سنه إبان دخوله فى عهدة التسترى ست عشرة سنة ، وربما كان ذلك أيضاً أول عهده بالطريق الصوفى .

وتوجد هناك إشارات تاريخية تفيد أن الحلاج كان فى خدمة التسترى

(١) فى كلام ١١٣٢ توجد إشارة إلى أن ابن سالم الابن قابل سهلا .

(٢) بناء على ما ورد فى كلام م / نفس الورقة . ويذكر ابن الأثير / ٨ ص ٤٣٠ (طبعة بريل ١٨٦٢) وفاة ابن سالم « أبى الحسن » أحمد ويصفه بأنه صاحب سهل ، على أنها كانت سنة ٣٥٧ ﻫ .

عندما خرج التسترى من « تستر » هارباً من العنت الشديد الذى فرضه عليه علماء وفقهاء « تستر » فى ذلك الوقت . وأن الحلاج أيضاً اتخذ مع التسترى ملجأه فى البصرة ، وكان ذلك حوالى عام ٢٦٠ هـ /٨٧٤ م . وهذا التاريخ يرجح أن يوافق السنة التى اندلعت فيها ثورة الزنج المشهورة . وقد برز سهل فى هذه الظروف كمن كرس جهده وأوقف بيته لمواساة المنكوبين والتخفيف مما حل بهم من ظلم واضطهاد .

إن تأثير التسترى العميق فى حياة الحلاج الروحية خلال هذه الفترة كان واضحاً للغاية ، سواء كان ذلك من ناحية التطبيقات العملية الخاصة بالزهد والتنسك والعبادة والتهجد وتلاوة القرآن ، أو كان ذلك من ناحية الآراء والأقوال الروحية التى تشير إلى مواجيد القلوب ، أو بعض الحقائق الفكرية فى التصوف .

فهناك صور الزهد الصارمة التى كان الحلاج يطبقها أسوة بالتسترى حتى إنه ليؤثر عنه أنه كان يفرض على نفسه صوم رمضان صياماً موصولا — وهذا هو ما نراه منسوباً إلى سهل . ولما ذاع اعتراض بعض العلماء على هذا العمل —كما قيل لنا — إن التسترى (ولا ندرى ما إذا كان الحلاج أيضاً كذلك) كان يفطر كل يوم على الماء ، تخلصاً من الوقوع فى المخالفة المرتبطة بصوم الوصال الذى نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم .

وعبر الحلاج أيضاً فى هذه الفترة عن الضراعة والخضوع والإحساس العميق بالذنب وعدم الجدارة بالفضل أو المغفرة ، وعلت نغمة الزهد الشامل وشاع الإحساس بالتفاهة وضرورة أخذ النفس بالعنف والقمع إن فى الفرائض أو فى النوافل ، حتى ليحكى عنه أنه فى هذه الأثناء كان يختم القرآن فى ركعتين اثنتين .

ومهما قيل عن القصص والحكايات التى حكيت حول الحلاج فى هذه الفترة فإن هناك حقيقة واحدة هامة يمكن استخلاصها فى هذا الصدد ، وهذه الحقيقة ترتبط بكون الحلاج فى هذه الفترة مرآة صادقة انعكست عليها تعاليم

أستاذه حيث أبرز الحلاج هذه التعليمات فى صورة تطبيقات عملية فى حياته اليومية(١) :

وربما كان تشدد التسترى فى ضرورة تنفيذ هذه التعليمات ، وعدم مجاوزة ذلك إلى الحديث عن الرؤى والوجود والأحوال سبباً فى نفور الحلاج من إشراف التسترى ، ومثله فى ذلك مثل بعض الطلبة الذين يضيقون بإشراف بعض الأساتذة لأن هؤلاء يطلبون بذل أقصى الجهود فى البحث والدرس ، مما يصعب على أمثال هؤلاء الطلاب ، أو مما لا يروق لهم على أية حال . عندئذ يهربون إلى من يسأل القليل ، ويعطى المراد بأيسر سبيل .

إن تعليمات التسترى فى هذه الفترة ربما بدت للحلاج غير مكافئة لآماله ومطامحه ، ولذا ذهب إلى بغداد علة يجد ما يطفىء غلته ، أو يروى روحه أو يتساوى مع خواطره الروحية ، وميوله السياسية ، التى ما زالت فى حاجة إلى الجديد من الدراسة .

حقاً لقد ذهب الحلاج إلى عمرو بن عثمان المكى (ت ٢٩١ هـ) (٢) ليقضى معه فترة ينتقل بعدها إلى الجنيد . وتدل المراجع على أن كلا من المكى « والجنيد » لم يكونا راضيين تمام الرضا عن مسلك الحلاج أو عن تعجله فى الوصول إلى مطمحه الروحى . وذلك المطمح ربما بدا لهؤلاء مجاوزاً حدود طاقة الحلاج النفسية أو تربيته الروحية ، حتى إن بعض هذه المراجع لتذكر أن من هؤلاء من تنبأ بمصير الحلاج ، نتيجة لما رآه منه مما يشبه الرعونة الروحية ، أو تعجل الحلول فى المقامات الصوفية دون إعداد منظم مسبق .

إن هذه الدراسة التى بين أيدينا ستبرز لنا فى حينها مدى إفادة الحلاج من تعاليم التسترى ، ومدى التأثير الذى أحدثه الأخير فى التعاليم الصوفية

---

(١) يروى كثيراً من هذه الصور أبو فيروز البيضاوى ، كقصة ختمه للقرآن فى ركعة وقصة لبسه السواد فى يوم العيد ، إحساساً منه بعدم قبول عمله الخ . انظر ماسينون :

La Passion, P 32

(٢) الشعرانى / الطبقات / ١ / ٧٦ .

والآراء التى جهر بها الحلاج ورفع لواءها . وقد نكون بعد هذا فى وضع يسمح لنا بتتبع بعض آراء الحلاج ، والوصول بها إلى مصادرها الأولى الأصيلة . وربما عجبنا لصلب الحلاج من أجل آراء يمكن تلمس أصل لها فى تعاليم كل من الجنيد والتسترى والمكى . وقد يؤدى ذلك فى النهاية إلى ترجيح الرأى القاضى بأن صلب الحلاج لم يكن فى الحقيقة لما أذاع من آراء صوفية ، بقدر ما ذاع عنه من آراء تهدف إلى ضرورة التغيير السياسى .

« البسطامى والتسترى »

لئن لم نجد هناك إشارات تدل على تلاقى التسترى والبسطامى (المتوفى سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٤ م) (١) واتصالهما اتصالا مباشراً ، فإن مما لا شك فيه أنه كانت هناك علاقات تربط بينهما ، وأن كلا منهما كان على علم بجوانب فكر وسلوك صاحبه ، وذلك بفضل تلاميذهما ، هؤلاء التلاميذ الذين أكثروا من تبادل الزيارات وتناقل الأخبار والروايات .

لقد كان التسترى يذكر عند البسطامى ، كما كان البسطامى يذكر عند التسترى ، وذلك بالطبع بحدد المناسبة التى تفرضها أقوال ذاك . ومما هو جدير بالملاحظة أننا نجد أنه بينما يكثر البسطامى من نقده لسهل ، ورميه بالقصور الروحى والقناعة بالقليل فى مثل هذا الميدان ، نرى التسترى لا يشير إلى البسطامى فى أى حديث ، ولا ندرى لذلك سبباً . لقد وصف البسطامى « سهلا » بأنه « قد وقف على شاطىء المعرفة ، ولم يغص إلى أعماقها » (٢) ، ومن ثم كان تحصيله المعرفى قليلا ، وإنجازاته الروحية غير جديرة بالاعتبار .

ولكننا فى الوقت نفسه نجد أن كلا منهما قد وصف درجة خاصة من درجات المعرفة ، فيها يتوغل الصوفى فى أسرار الغيب وينعم بمشاهدة محبوبه ،

---

(١) يذكر ابن خلكان (وفيات / ١ ص ٣٣٩ ط ١٢٧٥ هـ) هذا التاريخ وربما كان هذا أقرب الآراء إلى الصحة فى الوفاة على أن البعض قد يحددها بـ ٢٦١ هـ .

(٢) شطحات الصوفية / ١ ص ٧٥ ، ٧٦ .

وفى مثل هذا السمو الروحى تنكشف للصوفى مكانته من محبوبه بين المحبين والعاكفين .

إن كلاً من البسطامى والتسترى يقدم أوصافاً متطابقة تماماً فى التعبير عن هذه الحالة الروحية الرفيعة ، ويشير كل منهما إلى تمتعهما بهذه الحال الرائعة (١) وليس هذا فحسب هو ما يجمع بين التسترى والبسطامى ، فالواقع أن لكل منهما هذه الشطحات التى تناولها الصوفية فيما بعد بالشرح أو بالنقد اللاذع ، ومع أنه لم تحدث بينهما خصومة خطيرة ، إلا أننا نعتقد أن موقف البسطامى من التسترى على العموم كان من أهم الأسباب التى حملت ابن سالم (الابن) فيما بعد على تناول البسطامى بالنقد المرير ، والهجوم الخطير بالنسبة لبعض أقواله . حقاً لقد أسس ابن سالم هجومه ضد البسطامى على بعض شطحاته ، ولكن هذه الشطحات نفسها كان من الممكن أن تفسر تفسيراً مرضياً لا غبار عليه لو أن ابن سالم لم يكن متحاملا على البسطامى لقاء موقفه من التسترى ، كما يشير إلى ذلك السراج بوضوح تام . إن السراج ينبه ابن سالم إلى بعض شطحات التسترى التى لو أخذت كما هى لكانت مثار نقد مماثل ، ولوجد الطاعن فيها مبررات للطعن . ويضيف السراج إلى ذلك تعبيره عن الدهشة والاستغراب لما وصم به ابن سالم البسطامى من الكفر والإلحاد، بل لما نادى به من أن البسطامى كان أسوأ فى كفره وإلحاده من كفر فرعون لأن البسطامى — كما يذكر ابن سالم — قال « سبحانى » وفرعون قال « أنا ربكم الأعلى » والقول الأول خاص بالألوهية ، على حين أن لفظ « رب » قد يكون له معنى إنسانى .

ويذكر السراج ابن سالم ببعض الأقوال السهلية التى قد يجد فيها المتحامل بعض وجوه النقد والتجريح ، من مثل قوله « مولاى لاينام وأنا لا أنام » مما قد يفهم منه التسوية بين الخالق والمخلوق . أو قوله : «ذكر الله باللسان هذيان ، وبالقلب وسوسة (٢) » .

---

(١) انظر مثلا المكى / قوت القلوب / ٢ ص ٧٦ وما بعدها .

(٢) انظر السراج / اللمع ٣٩٤ (ص ٤٧٢ ط القاهرة) .

ومن الملاحظ أن ابن سالم يحاول شرح القول الثانى بقوله : إن المراد هو البقاء بالمذكور لا بفعل الذكر نفسه . وهذه قضية مشهورة للتسترى ستتضح فيما يتبع من دراسة إن شاء الله . ولكن ابن سالم لا يعلق على القول الأول مع أن من الممكن أن نجد من أقوال التسترى نفسه ما يفسر هـذا القول الأول المشار إليه ، إذ يذكر فى بعض المواضع من كلامه بعض الأحاديث النبوية التى تتصل بنوم الأنبياء ، والتى تشير إلى أن عيونهم تنام ولكن قلوبهم تظل يقظى . وقد صرح التسترى كذلك فى موضع آخر أن عيون الأنبياء تنام « ولا ينام موضع الوحى فيهم (١) » ويضيف التسترى إلى ذلك قوله بأن الأولياء كذلك تنام عيونهم « ولا ينام موضع حالهم » (٢) فالفرق بين الأنبياء والأولياء يكمن فى تحديد المصطلح اللائق بكل منهم ، فهو مع الأنبياء « موضع الوحى » وهو فى الأولياء « موضع الحال » وذلك رعاية للحدود التى يقف عندها الولى . ويكون عدم النوم المشار إليه فى قول التسترى الأول ، هو عدم نوم موضع الحال . وعلى أية حال فليس هذا فصلا فى المقارنة بين البسطامى والتسترى ، وإن كان ذلك لا يمنع من الإشارة العامة إلى أن هناك فرقاً واضحاً بين البسطامى والتسترى من حيث موقف كل منهما مما يراه حقيقة . فالبسطامى يبوح بذات نفسه متجاهلا سائر من حوله ، صارفاً النظر عما إذا كان ما يبوح به دفعاً للمريد ، وحملا له على المداومة فى صقل نفسه وتربيتها أولا ، بينما نرى كثيراً من أقوال التسترى يصرف لينتفع به تلامذته ، لأنه فى الغالب إجابة عن تساؤل ، وهذا لا يمنع بالطبع وجود أقوال تصور حال التسترى الخاص وتستعصى على بعض المريدين . وهذه الأقوال قد صدرت ولاشك عن حالة نفسية طاغية ، لم يملك لهـا التسترى حبساً أو قيداً . وهذه الأقوال الأخيرة وحدها هى التى تجعل بعض أوجه الشبه بينها وبين أقوال البسطامى . ويبدو كذلك أن البسطامى لم يكن يتوخى تكوين مدرسة أو تربية ثلة من التلامذة ، وإنما كان مثله مثل القطب المغنط ، الذى ينقل مغنطته إلى زائره بحاله أكثر من مقاله . وسترد أثنـاء

---

(١) انظر كلام / ١٠٨ ا .

(٢) نفس المرجع .

هذه الدراسة مواضع التقاء وافتراق التسترى والبسطامى عند عرض جوانب مذهب التسترى .

* * *

ومن معارف سهل وأصدقائه — رغم فارق السن — الحسن بن على بن خلف أبو محمد البربهارى شيخ الحنابلة فى عصره (١) . لقد كان البربهارى من الزهاد المشهورين ومن ذوى القدم الثابتة فى الدين . لقد كان البربهارى معاصراً أيضاً للأشعرى (أبى الحسن) إمام الكلام العظيم وصاحب الفرقة المشهورة والذى توفى عام ٩٣٥/٣٢٤ ، وكان الأشعرى يكثر من زيارة البربهارى ، وكان من عادته فى كل زيارة أن يفخر بقدرته الكلامية وطاقته الجدلية وقدرته على إفحام الجبائى (ت ٩١٥/٣٠٣) الذى كان يوماً ما أستاذاً له (٢) .

ويبدوا أن حياة البربهارى لم تمر فى هدوء واستقرار ، فقد استطاع بعض أعوانه أن يؤلبوا عليه الخليفة ، فاستدعاه وقبض على تلامذته وأنصاره وربما كانت سنة ٩٣٤/٣٢٣ م هى أفضل فترة عاشها البربهارى تحت رعاية الخليفة الراضى . ولكن ما لبث أن أوغر عليه صدر الراضى ، فحرم التلاقى بين أصحاب البربهارى ، واختفى البربرهارى نفسه حتى توفى عام ٩٤٠/٣٢٩م

لقد حفظ البربرهارى بعض أقوال سهل ، وكان يرددها على تلامذته وصحابه كالمعجب المستدل . ويظهر أن قول سهل الخاص بقيمة العلم كان بين الأقوال التى حظيت بإعجاب البربهارى ، حيث يرويه على النحو التالى :

« خلق الله هذا العالم ، وخلق فيه العلماء والجهال ، وأفضل العلم ما أيده العمل ، والعمل هباء إلا موضع الإخلاص ، ولا يتأكد الإنسان من غير فضل الإرادة الإلهية » (٣) .

---

(١) انظر ابن القراء / طبقات الحنابلة ٪ ٢٩٩ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

وسنرى مدى التطابق بين أقوال وآراء كل من التسترى والبربهارى فى موضعه من هذه الدراسة .

* * *

ومن أصدقاء سهل أيضاً أبو يعقوب السوسى الصوفى والأستاذ العظيم الذى أشرف على أبى يعقوب اسحاق بن محمد النهرجورى المتوفى سنة ٣٣٢/ ٩٤٤ . ومن هنا نشأت علاقة الود بين النهرجورى والتسترى الذى كان يقدره حق التقدير ، ويتوقع دائماً أن تصور أقواله أفعاله ، ومدى ما قطع من أشواط فى مجاله الروحى .

لقد كان التسترى ذات يوم بأرجان مع أبى يعقوب السوسى « حيث دخل عليهما رجل يشكو أزمة روحية انتابته فجأة . وملخص شكواه أنه فتح عليه بمال حتى أثرى وصار ينفق موسعاً على نفسه وعلى أهله . ويظهر أنه أسرف فى تمتعه الكامل بثروته ، فأحس إثر ذلك وكأنه قد فقد حاله الروحى بل فقد إيمانه ، وأصبح قلق النفس معذب الضمير ، وهو ينشد لدى التسترى أو السوسى حلا لأزمته . وقد كان تعليق التسترى العاجل على قصة الرجل قوله « فى ديوان المحن دخلت منذ تعرضت لهذا الأمر » وقد يرشد التسترى بذلك أن من يرزق الغنى والمال لابد أن يتعرض للكثير من الفتنة والابتلاء . وبعد أن انتهى الرجل من سرد شكواه التفت التسترى إلى أبى يعقوب السوسى يسأله فى هذه المسألة ، فقال السوسى « إن مصيبته فى حاله أشد من مصيبته فى إيمانه » وهنا نجد التسترى يعلق على قول السوسى فى شىء أدنى إلى العتاب إذ يقول « أمثلك يقول هذا يا أبا يعقوب (١)»؟ وكأن التسترى يعترض على رأى السوسى فى وضع الحالة الروحية فوق الإيمان . وهذا — كما سترى — بناء على عمق الإيمان لدى التسترى ؛

* * *

وهذا صديق آخر من أصدقاء سهل وهو أبو حمزة الصوفى محمد

---

(١) انظر اللمع ١٩٣ .

ابن إبراهيم الذى توفى عام ٢٦٩ هـ / ٨٨٢(١) م . هذا الصوفى الزاهد العظيم الذى اعتاد أن يلقى المواعظ والخطب بمسجد الرصافة ثم بالحرم النبوى الشريف بالمدينــة .

ويبدو أن أبا حمزة هذا لم يكن يقتصر على الجلوس فى حلقات التصوف ، بل كان يغشى مجالس العلم والأدب . شأنه فى ذلك شأن المستزيد لتلمس مصادر الثقافة والعلم أنى وجدت . ولقد كان يعرض على سهل التسترى أحياناً ما يسمعه فى هذه المجالس ، ويعقب سهل على ما يسمع أحياناً بالنقد وأحياناً بالتكميل والتصحيح . وأحياناً أخرى بالإقرار والموافقة .

ومن أمثلة ذلك ما روى من أن أبا حمزة جاء يوماً إلى سهل فسأله سهل أين كان قبل وصوله ، فأجاب أبو حمزة بأنه كان فى زيارة بعض العلماء ، حيث ألقى هذا العالم على مسامع أبى حمزة حديثاً حول أنواع السكر ، فقــال له سهل اعرضها على ، فقال أبو حمزة « سكر الشراب ، وسكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر السلطنة » عندئذ علق سهل بقوله « وهناك سكرتان لم نخبرك بهما » فقال أبو حمزة : ما هما ؟ فقال سهل « سكر العالم إذا أحب الدنيا ، وسكر العابد إذا أحب أن يشار إليه (٢) .

---

(١) انظر طبقات الحنابلة ١٩٩ وهو هذا العلم الذى يرون سؤال الإمام أحمد ابن حنبــل له فى بعض المسائل الفقهية بقوله « ماذا تقول فى هذا يا صوفى؟» الخ .

(٢) انظر تفسير / ٥٥ ، ٥٦ (٨٥ ط ١٩٠٨) .

٣ — ثقافته ومؤلفاته

(ا) ثقــافته :

إن من ينظر إلى حقيقة ميل التسترى إلى العزلة وحياة الخلوة والتهجد ، ونفوره من التعليم النظامى من الكتب — من ينظر إلى كل هذا — يظن أنه فى مثل هذه الظروف لا يتصور أن يكون التسترى قد ألم بثقافة عما كان يدور فى عصره من علوم ومعارف ، والحقيقة أن التسترى فى ربيع عمره تعلم فروعاً كثيرة من العلوم الذائعة فى عصره :

لقد تلقى عن خاله (١) ابن سوار بعض الأحاديث النبوية والآراء الخاصة بتفسير بعض آيات القرآن كما يتضح ذلك من إسناد سهل لبعض الأقوال والآراء التى ترد فى تفسيره للقرآن العظيم ، وهذا ما جعلنا نستنبط أن ابن سوار ظل حياً حتى بلغ سهل من السن ما يسمح له بتلقى هذه العلـــوم والمشاركة فى النقاش حولها .

حقاً لقد أظهر التسترى حباً عميقاً وإجلالا فائقاً للحديث النبوى وتقدير رجاله حتى إنه ليحكى عنه أنه ذهب ليرى المحدث المشهور ، أبا داود السجستانى — الذى كان يكبر سهلا بعام (ولد حوالى ٢٠٤ هـ / ٨١٧ م) . وقد سر به أبو داود وطلبه إليه للجلوس ، عندئذ رجا التسترى أن يخرج أبو داود لسانه ليقبل هذا الذى يروى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وأهم من ذلك بكثير فى نظرنا تراث التسترى نفسه ، وهو يشهد بإلمام كامل بعلم الكلام والفلسفة كما فهمتها بعض الفرق الإسلامية التى تحب أن

---

(١) ويظهر أن ابن سوار خلف أفرادا من صلبه ، تشتغلون برواية الحديث النبوى لأن أبا الحسين الملطى (المعروف بالطرائفى والمتوفى سنة ٣٧٧ هـ) يعد من الثقاة الذين تثبت عن طريقهم أصول السنة شبابة بن سوار . وإن كان الشيخ زاهد الكوثرى يشير إلى عدم دراية الملطى فى معرفة الرجال . انظر التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع /٢٢ .

(٢) انظر ابن خلكان . وفيات / ١/١/١/٣٠١ .

نطلق عليها المدرسة الاعتبارية ، وهى تلك التى تتخذ الاعتبار والتدبر وسيلتها إلى إدراك الحقيقة . والاعتبار هنا لا يعنى مجرد التفكير النظرى المتنقل ، بل يجمع إلى ذلك استصحاب الوجدان أو البصيرة مما يضم الفكر إلى الذوق : ويبدو أن هذا المصطلح « اعتبار » قد استعمل بدل لفظ فلسفة أو لفظ غنوص لماله من المسوغات والمبررات الدينية (١)

ومن تراث التسترى كذلك نعلم أنه لم يكن يجهل الفروع الأخرى من أبواب المعرفة كالطب والكيمياء وهناك بعض الدلائل التى تشهد بصحة هذه الفكرة . فهناك روايات تصور سهلا طبيباً وكيماوياً يصنع الدواء ويمنحه للناس . وقد انتدب لعلاج حاكم طاغية مثل أبى يعقوب الليث بن صفار . ويورد أبو نعيم قصة هذا العلاج على النحو التالى : « اعتقل بطن يعقوب هذا فى بعض كور « الأهواز » فجمع الأطباء فلم يغنوا عنه شيئاً . فذكر له سهل ابن عبدالله فأمر بإحضاره فى « العماريات » فأحضر ، فلما دخل عليه قعد على رأسه وقال : اللهم أريته ذل المعصية ، فأره عز الطاعة. ففرج عنه من ساعته ، فأخرج إليه مالا وثياباً فردها ولم يقبل منه شيئاً » ثم تنتهى القصة بعرض كرامة سهل . ولكن هناك إشارات أخرى إلى أن سهلا كان يداوى العيون بمساحيق معينة ، وبأنه كان على دراية ببعض أوجه التفاعل بين المواد ومن هذه الإشارات ما سجله السراج فى كتابه « اللمع » للتسترى مما يدل حقيقة على إلمام بالمعرفة الكيميائية ، فقد روى السراج أن التسترى دخل صومعة صديق له بعد موته ، وهو يسمى اسحق بن أحمد ، فوجد إناءين مملوءين أحدهما قد ملىء بسائل أحمر ، والآخر قد ملىء بسائل أصفر ، كما وجد قطعتين إحداهما من الذهب الصناعى والأخرى من الفضة الصناعية . وعندما سأل ابن سالم أجابه إجابة الخبير بنتائج هذه التجربة بمقادير وظروفها وشرائطها .

ومما يلفت النظر أن التسترى رمى بالقطعتين المصنعتين فى النهر ، وصب الزجاجتين على الأرض . وصادف أن كان هذا المتوفى مديناً ، ولهذا سأل

---

(١) انظر مقالنا « من مؤلفات ابن مرة » مجلة كلية التربية طرابلس العدد الثالث ص ٢٦ — ٧٦ .

ابن سالم سهلا مرة أخرى عن السبب الذى من أجله ظل هذا المتوفى مديناً مع إمكانه ببيع القطع المصنعة والتكسب منها لتسديد دينه . وعندئذ أجاب سهل بأن المتوفى كان يخشى على دينه وورعه . وعندما سأل السراج ابن سالم — الحفيد — : ولم لم يبع سهل نفسه القطعتين ليسد عن الرجل دينه ؟ .

أجابه ابن سالم بأن سهلا كان أخوف على دينه حيث علم أن هذه المعادن يتغير لونها بعد سبعين سنة (١) . .

ومن المرجح أن التسترى قد استقى معرفته الكيميائية من ذى النون المصرى (٢) ت ٢٤٥ هـ ، فقد كان يجله غاية الإجلال لدرجة أنه حرم على نفسه الحديث على الناس فى التصوف أو التصدر للوعظ والتوجيه مادام ذو النون حياً . ويسجل المؤرخون ابتداء سهل بالحديث فى ساعة معينة كانت بالفعل ساعة وفاة ذى النون (٣) . وإذا كانت الجهود التى بذلها بول كراوس فى نشر الكتب والرسائل المنسوبة لجابر بن حيان مؤيدة بالصواب ، فإن المصدر الطبيعى والرئيسى لهذه المعرفة الطبيعية والكيماوية يكون فى هذه الحالة مؤلفات وتجارب جابر الكثيرة فى هذا الصدد وسيتضح لنا أثناء هذه الدراسة الكثير من هذه الجوانب .

على أن ذا النون نفسه قد عد من الفلاسفة من كثير من المؤرخين ووضعه القفطى فى مرتبة جابر بن حيان فى الكيمياء ذاكراً أنه درس البواطن وله

---

(١) اللمع ٣٢٦ . ومن الملاحظ أيضاً أن أحمد هذا يبدو وكأنه حديث عهد بالإسلام حيث كان كثير التعبير عن قلقه بسبب استيفاء احتياجاته المادية ويذكر السراج فى المرجع السابق ٣١٩ أن التسترى لكى يقنع أحمد هذا بالتوكل أحال حجراً أمامه إلى طعام .

(٢) يؤكد كل من القفطى والمسعودى معرفة ذى النون بالكيمياء ويضعه القفطى فى منزلة جابر بن حيان (أخبار العلماء ١١١ ، ٢٢٨١ ط القاهرة ، المسعودى / مروج الذهب / ٤٠١٢) ويوافق نيكلسون هذا الرأى . فى التصوف الإسلامى / ترجمة د. عفيفى ٧ ، ١٢ .

(٣) انظر الحلية ١٠/١٠ . والحديث الأول المسجل للتسترى يدور حول مواريث القلوب ونيل العلم اللدنى وتحريمه على آخذ الشهوات . ويورد السراج إجابة التسترى عن سبب امتناعه عن الحديث بأنه لم يحب أن يتكلم وذو النون فى الأحياء (انظر اللمع ١٨١) .

معرفة واسعة بالفلسفة والكيمياء (١) .

ويحدثنا السهروردى المقتول ت ٥٨٧/١١٩١ م معبراً عن رأى أرسطو فى الفلاسفة الإسلاميين فى هذا اللقاء الإشراقى الذى صوره فى كتابه « التلويحات العرشية » (٢) فيقول على لسان أرسطو عند ذكر « التسترى » و« البسطامى » : « إن هؤلاء هم الفلاسفة حقاً » ثم أخذ (أرسطو) يثنى على أستاذه أفلاطون الإلهى ثناء تحيرت فيه ، فقلت : وهل وصل من فلاسفة الإسلام إليه أحد ؟ فقال : ولا إلى جزء من ألف جزء من رتبته ، ثم كنت أعد جماعة أعرفهم ، فما التفت إليهم ، ورجعت إلى أبى يزيد البسطامى ، وأبى محمد سهل بن عبد الله التسترى وأمثالهما فكأنه استبشر وقال : أولئك هم الفلاسفة حقاً ، ما وقفوا عند العلم الرسمى ، بل جاوزوا إلى العلم الحضرى والاتصال الشهودى ، وما اشتغلوا بعلائق الهيولى، فلهم الزلفى وحسن مآب ، فتحركوا عما تحركنا ، ونطقوا بما نطقنا » (٣) .

والواقع أن نفور التسترى من الجهل وحبه للثقافة يبدو فى كثير من أحاديثه حتى إنه ليحذر من الصوفية الجاهلين (٤) .

ويشير التسترى إلى الجوانب الرئيسية للعلوم الإنسانية فيذكر منها الطب والنجامة والديانة والكيمياء . ويبدو أن تقسيم سهل للعلوم إنما يراعى القسم الثامن من أقسام الحكمة النظرية كما فى العلمى وحاشية شرح هداية الحكمة ، وشرح حكمة العين ، وكما سجله التهانوى فى كشافه : وهذا القسم الثامن يتصل بفروع سبعة هى : الطب ، النجوم ، الفراسة ، التعمير ، الطلسمات ،

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ (ط . / ١٣٣٢) .

(٢) نشر هذا الكتاب مع بعض الكتب والرسائل الأخرى ضمن « مجموعة فى الحكمة الإلهية » من النشريات الإسلامية رقم ١٦ استانبول مطبعة المعارف ١٩٤٥ التى تصدر عن جمعية المستشرقين الألمانية .

(٣) التلويحات العرشية ص ٧٤ عن كوربان / تاريخ الفلسفة الإسلامية ٣١٢ . قارن القزوينى / آثار البلاد ٣٨٣ . وفى تعليق الشهرزورى على حكمة الإشراق ص ٢٥٥ يذكر سهلا على أنه من الذين فى مقدرتهم التجرد عن الجسدانية ، كما يشار إلى التسترى أيضاً فى منتخب رقم ٢٣ ص ١٠٥ (ضمن مجموعة الحكمة للسهروردى) .

(٤) انظر مثلا اللمع ١٧٩ (نشرة نيلكسون) .

النيرنجات ، الكيمياء(١) ويبدو أن السهروردى المقتول كان يعنى حقاً التسترى وذا النون عند حديثه عن النور الطامس فى كتابه «المشارع والمطارحات» إذ يقول «فخميرة الفيثاغوريين(٢) * وقعت إلى « أخميم » ومنه نزلت إلى سيار « تستر » وشيعته وأما خميرة الخسروانيين فى السلوك فهى نازلة إلى سيار « بسطام » ومن بعده إلى فتى بيضا (٣) . فهذا النص على ما يبدو يشير — على الترتيب — إلى ذى النون المصرى وسهل التسترى وأبى يزيد البسطامى وأبى منصور الحلاج . غير أننا لا نود أن نستنبط من هذا أن كلا من هؤلاء الأعلام يمكن إرجاع إنتاجه برمته إلى هذه المصادر التى ذكرها السهروردى ، وإلا فالفكر اليونانى برمته مدين بالكثير إلى الفكر الشرقى فى كل من مصر والعراق وفارس والهند . ولكن هناك خطوطاً فكرية عامة تتسق تمام الاتساق مع هذه المصادر — إن لم يكن فى التفصيلات فعلى الأقل فى الصورة العامة ، بشرط أن تفهم مع ذلك ضرورة أخذ التجربة الأساسية لكل منهم موضع الاعتبار والتقدير .

(ب) مؤلفاته :

وبالرغم من الشك فى كون التسترى قد تعمد التأليف المنظم للكتب أو الرسائل فإن المؤرخين قد نسبوا إليه من المؤلفات التى تختلف كما وكيفا . وأغلب الظن أن هذه الكتب والرسائل إنما هى خلاصة انتقاها ونقلها تلامذته من بعده وبخاصة ابن سالم (الابن) ومن هذه المؤلفات :

---

(١) انظر التهانوى / كشاف اصطلاحات الفنون ٧٥/ .

(ط وزارة الثقافة تراثنا) .

(٢*) يشير بعض الباحثين إلى أن فورفوريوس الصورى (توفى بعد عام ٣٠١ م) ألف كتاباً فى تاريخ الفلسفة ووصلتنا منه « حياة فيثاغورس» وكان هذا الكتاب كما يقال من المظان الرئيسية التى استقى منها المؤرخون العرب أخبار قدماء فلاسفة اليونان (انظر ماجد فخرى دراسات فى الفكر العربى ٦٣٠) .

(٣) المشارع والمطارحة ص ٥٠٣ (ضمن مجموعة فى الحكمة الإلهية — نشرة كوريان — المجلد الأول استانبول / مطبعة المعارف ١٩٤٥) ويورد السهروردى أيضاً فى معرض حديثه عن القدرة على الانسلاخ من البدن كما مر فى حكمة الاشراق حاشيته . وراجع مقدمة الكتاب ص ٢٩٩ .

١ — دقائق المحبين (أو رقائق) .

٢ — مواعظ العارفين .

٣ — جوابات أهل اليقين .

وقد ورد ذكر هذه المؤلفات الثلاثة فى الفهرست لابن النديم / ١٨٦ (ط فلوجل ١٨٧١ ، ص ٦٦٢ ط القاهرة ١٣٨٤ هـ وفى الكواكب الدرية للمناوى جـ ١ ص ٢٤٣ وهو الذى يقرأ عنوان المؤلف الأول « رقائق » بالراء لا بالدال ، كما ورد أيضاً فى معجم المؤلفين جـ ٤ ص ٢٨٤ [ط. دمشق] ١٩٥٧/١٣٧٧ ، وكذلك فى هدية العارفين جـ ١ ص ٤١٢ [ط. استانبول ١٩٥١] وفى روضات الجنات للخوانسارى ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

ويبدو أن هذه المؤلفات قد فقدت ولا أمل فى العثور عليها حتّى الآن .

٤ — تفسير القرآن العظيم :

وقد ورد ذكره فى بروكلمان GAL, S.I.P 333

وفى معجم المؤلفين /٤ ص ٢٨٤ يذكر كلمة الكريم بدل « العظيم » وقد نشره الغسانى دون تحقيق بالقاهرة ١٩٠٨/١٣٢٦ ثم أعيد طبعه عام ١٣٢٩/ ١٩١١ وإلى هذه الطبعة الأخيرة نشير ما لم نذكر غير ذلك فى حينه ، وسنبحث مدى وثاقة هذا التفسير فيما يأتى بعد الانتهاء من إحصاء مؤلفات التسترى كاملة .

٥ — قصص الأنبيـــاء :

وقد أورد ذكر هذا المؤلف حاجى خليفة فى كشف الظنون / ٢ ص١٠٧ (ط : ١٢٧٤ هـ ٣ ، جـ ٤ ص ٥١٨ ط فلوجل) . ويبدو أن حاجى خليفة قد رأى هذا المؤلف فعلا لأنه يذكر بدءه بهذه العبارة « الحمد لله الأول الذى لم يسبقه شىء » ولم نعثر على هذا المؤلف للآن ، وإن كنا نعتقد أن أجزاء قليلة منه قد احتفظ بها فى كل من التفسير وكلام سهل ، فى تلك المواضع التى تخدم غرضاً روحياً كما كان يرى التسترى .

٦ — رسالة الحروف :

وهذا المؤلف لم يرد ذكر عنوانه كما هو ، ولكن يبدو أنها الرسالة التى أشار إليها إسماعيل البغدادى فى كتابه هدية العارفين /١ ص ٤١٢ بعنوان « زايرجة » وربما أطلق البغدادى عليها هذا الاسم نظراً لما رأى من أرقام بهوامش المخطوط ظن أنها القيم العددية للحروف التى تمت بصلة وثيقة بالزايرجة ، على حين أنها خاصة بأسرار الحروف التى تشرح فكرة الخلق ، والتأليف بناء على التأمل فى حقيقة الحروف من الجانب الميتافيزيقى .

٧ — كتاب الميثاق :

وقد نص عليه ناسخ رسائل الجنيد وهو تلميذ ابن عربى اسماعيل بن سودكين الذى توفى عام ١٢٨٤/٦٤٦(١) . ومن المهم أن نلاحظ أن هذا الناسخ يتخذ العنوان الذى وجده لسهل نموذجاً ومثالا لعنوان رسالة مماثلة للجنيد فى نفس الموضوع . ويضاف إلى ذلك أن الناسخ يؤكد أنه وجد وقرأ رسالة فى « الميثاق » لسهل بن عبدالله التسترى ، وهذا المؤلف — وإن كان قد فقد — يمكن التقاط بعض نقاطه الهامسة المتصلة بموضوعه فيما عثر عليه من أقوال سهل ، وبخاصة فى التفسير وفى كلامه المجموع ، فيما يتصل بتعليقه على الآية القرآنية الكريمة الخاصة بالميثاق فى سورة الأعراف رقم ١٧١ .

٨ — رسالة فى الحكمة والتصوف :

ويرد ذكر هذه الرسالة فى معجم المخطوطات المصورة (معهد إحياء المخطوطات المصورة جـ ١ ص ١٦١ رقم ١٩٥ ، وهى مصورة عن المخطوطة ٤١٢٨/٤ بمكتبة أيا صوفيا من ورقة ١٤٨ — ١٦١) وقد اطلعنا على هذه الرسالة ، فوجدناها غير كاملة وليست ذات أهمية كبيرة ، بل إنها ربما لم تكن سوى مستخلصات محرفة ، وغير تامة من بعض مؤلفات سهل الأخرى .

---

(١) انظر مقدمة أ. ج . أربرى لكتاب الصدق للخراز (P. vii) .

٩ — الغاية لأهل النهاية :

وقد ورد ذكر هذا المؤلف فى كشف الظنون (نشرة فلوجل ج ٤ ص ٣٠٣ رقم ٨٥٣٤ ، كما ورد فى هدية العارفين/١ ص ٤١٢) . ويذكر الفريابى ت ٩١٢/٣٠٠ (الفهرست /٣٢٤ ط القاهرة ١٣٤٨) أن عنوان هذا المؤلف و « خلاصات غايات أهل النهاية » (القرشى / طبقات الحنفية ج ١ ص ٥٣ (١)) .

١٠ — زايرجة :

كما وردت فى هدية العارفين رنعتقد أنها ربما كانت هى رسالة الحروف التى مر الحديث عنها .

١١ — سلسبيل سهلية :

وقد نسب الشيخ السنوسى هذا المؤلف الصغير ، الذى هو عبارة عن صيغة يظن أنها مأثورة لسهل ، ولكن ماسينيون يشكك فى نسبتها ويرى أنها ذات أصل أحدث بكثير من عصر التسترى (٢) . ويشير عبد الرؤوف المناوى فى الكواكب الدرية / ١ ص ٢٤٣ إلى هذه الصيغة باعتبارها الصيغة التى تعود سهل أداءها . ويبدو أنها نفس الصيغة التى تلقاها من خاله محمد بن سوار .

١٢ — كلام سهل :

وهو مخطوط رقم ٧٢٧ بمكتبة كوبرولو باستانبول .

وباستعراض عناوين المؤلفات السابقة مثل رقائق المحبين ، وجوابات أهل اليقين وغايات أهل النهاية ، يظهر لنا أن أقوال سهل وما سجل له من آراء قد شمل فعلا حقل التصوف برمته ، وقد لمس تقريباً كل المشاكل الصوفية والكلامية التى أثارت اهتمام عصره ، كما سيتجلى ذلك مما سنعرضه

---

(١) قارن ماسنيون / دائرة المعارف الإسلامية / ٤ ص ٢٣ (لندن وليدن ١٩٢٤ — ١٩٣٤) .

(٢) قارن نفس المرجع السابق .

من دراسة . وقد كتب هذا المخطوط عطاء الله المعروف بنوعى زاده القاضى فى مدينة أسكوب فى عام ١٠٤٤هـ ١٦٣٤ م وقد نقله هذا الناسخ من أصل قديم لا يعرف تاريخه ، ويحتوى هذا المخطوط على ثلاثة كتب بالعناوين التالية :

١ — كلام سهل بن عبدالله التسترى .

٢ — كتاب الشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل .

وقد تناول فيه مؤلفه — أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الصقلى (١) عرض بعض الأقوال السهلية التى أثارت التساؤل ، ثم تبع كل قول بالشرح والتفسير الذى يراه .

٣ — كتاب المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى فى الأحوال من كلام سهل أيضاً . وتوجد نسخة أخرى من كتاب « الشرح البيان » كتبت فى القرن التاسع الهجرى (أسعد أفندى رقم ١٦٢٢ وهى ٤٢ لوحة ، كل لوحة صحيفتان) وقد رجعنا إلى مصورة من هذه النسخة (٢) ولم نلاحظ وجود خلاف يذكر بين النسختين .

ويبدو أن أبا القاسم الصقلى قد نقل كلام سهل أثناء سماعه بمكة عام ٣٥٠ هـ بعد حجه مباشرة (٣) مما يمنح المخطوط قدراً كبيراً من الوثاقة . ولا نستبعد اتصال الصقلى بابن سالم الابن فى مثل هذا التاريخ سواء كان اللقاء مباشراً أو غير مباشر .

أما الكتاب الأول فيضم أقوال سهل الموجزة المركزة حول قضايا الزهد والتصوف وعلم الكلام ، مقدمة على سبيل الحكاية ، مما يشهد بأن التسترى نفسه لم يخطه ، وإنما سجل أقواله حاضرو مجلسه ، وعلى رأسهم ابن سالم الأب ، ثم تلقى ذلك وتناوله بالترتيب والتبويب ابن سالم الابن أو أبو القاسم الصقلى

---

(١) كما وردت فى معجم البلدان لياقوت /٥/٣٧٣ .

(٢) قارن قائمة المخطوطات المصورة (معهد إحياء المخطوطات المصورة جـ ١ ص ١٧١ رقم ٢٨٧ .

(٣) انظر Ceuteario /٢/١٠٠ نقلا عن كتاب « المعالم /٣/١٨١ » (ط تونس) وقارن د. إحسان عباس / العرب فى صقلية /١١٥ (دار المعارف) .

نفسه ، الذى كرس جهوده فيما بعد للشرح والتعليق على أقوال سهل ، والدفاع عنه دفاعاً حاراً .

وفى الكتابين الأخيرين « الشرح والبيان » ، و « المعارضة والرد » نجد مقتطفات من أقوال سهل ، بعضها قد يكون مذكوراً فى الكتاب الأول بصورة مجملة دون إيضاح ، يلى هذه الأقوال بعض التفسيرات التى رآها الصقلى ضرورية لتجلية مراد سهل . ويتضح من شرح الصقلى اعتماده فى شرحه على كل من ابن سالم وأبى طالب المكى ، لكن ذلك لا يمنعنا من الإقرار بأن شرح الصقلى يدل بلا شك على إلمامه التام بتعاليم سهل الصوفية ، وإن كنا نلاحظ أنه يختار بعض النصوص السهلية الغامضة الموحية ، ويفسرها تفسيراً تقليدياً نعتقد أنه يبعدها عن المراد الأصلى منها .

ونرى فى كتاب « المعارضة والرد » بعض أقوال سهل ، محكية على لسان ابن سالم أحياناً ، وعلى لسان غيره أحياناً أخرى . وقد يظن من قراءة هذا العنوان « المعارضة والرد » أنه كتاب كلامى مخصص للجدل حول المسائل الكلامية الخالصة ، ولكنه فى الواقع يضم كثيراً من أوجه النقد الموجهة ضد بعض آراء الفرق الكلامية وبخاصة « القدرية » و « المرجئة » ثم يلى ذلك ما بقى من الكتاب مخصصاً للمسائل الصوفية الخالصة ، ونقد بعض الاتجاهات أو العادات أو الفرق الصوفية .

وإذا قورن هذا الكتاب بكتاب « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » (١) للإمام الفقيه أبى الحسين محمد بن أحمد الملطى (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ) ظهر الفرق واضحاً بين الكتابين ، من حيث توفر الملطى على ذكر سائر الفرق الكلامية ، وعرض آرائها ، فهو أقرب إلى كتب الملل والنحل منه إلى كتب التصوف .

لكن ذلك لا يحول دون ملاحظة أن هذا الكتاب الأخير الذى يعتبر

---

(١) طبع عن النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة فى الخزانة الظاهرية بدمشق ، وقد نشره السيد عزت العطار تعريف وتقديم الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ط ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .

من أقدم ما ألف فى شرح أحوال الفرق ، لم يكن إلا صدى لحركة الدفاع الفكرية التى انبرى لها ثلة من علماء الإسلام ومن الصوفية ، ومن بينهم سهل التسترى . وقد وقفنا فى هذا الكتاب على أمثلة لاتفاق الملطى مع التسترى ، لا سيما فيما يتصل « بالقدرية » الذين يصفهم أحياناً « بالمفوضة » (١)

ونعتقد أن مخطوط كوبرولو بما يشتمل عليه من كلام سهل ، وبما يتضمن من شروح الصقلى يمثل مصدراً أساسياً وهاماً من مصادر فكر سهل وسلوكه وبخاصة إذا علمنا أن معظم المؤلفات الأخرى التى أشرنا إليها لم يعد موجوداً الآن .

وهناك حقيقة أخرى يجب الإشارة إليها ، وهى أن الصقلى قد كتب شروحه هذه فى القيروان فى حدود عام ٣٩٠ هـ — ٩٩٩ م (٢) مما يدل على أن أقوال سهل وآراءه كانت معروفة قبل ذلك ، ليس فى الجانب الشرقى من الأراضى الإسلامية فحسب ، بل فى الجانب الغربى أيضاً ، وذلك بفضل الدور الكبير الذى كانت تقوم به مكة كملتقى للحجيج من مختلف الطبقات من علماء وزهاد وصوفية وغيرهم .

على أن الصقلى نفسه قد ألف عدة مؤلفات صوفية ، تتضمن بلا شك آراء سهلية خالصة حول المجتمع والمرأة والزهد والكرامة إلى آخر هذه القضايا . ومن هذه المؤلفات :

١ — الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار (يسمى عادة بأنوار الصقلى) وقد ورد فى المكتبة الصقلية باسم « جواهر الألفاظ وظهور الأنوار » (٣) .

٢ — الشرح والبيان لما أشكل من كلام ابن عبد الله .

٣ — صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء .

٤ — كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان .

---

(١) انظر التنبيه والرد / ١٦٤ .

(٢) قارن ماسنيون فى نشرته لكتاب «الطواسين» للحلاج Notes EXPI.P. 195,F.N.S

(٣) انظر ص ٩٦٨ — عن نسخة ليدن رقم ٥٢٩ .

٥ — كتاب الدلالة على الله (وهو كتاب فيه الدلالة على الله) .

ولم يبق من هذه المؤلفات إلا الأول والثانى وبعض الخامس ونحن بصدد نشر الأول بإذن الله (١) .

وعلى أية حال فإن روح مخطوط كبرولو تدل على أن الرواة والنقلة قد توخوا سبل التوثيق والدقة لما نقلوا أو رووا ، باذلين فى ذلك ما وسعهم من جهد . وتوجد أمثلة كبيرة لتحريهم الدقة فى تحديد كلمات سهل الحقيقية تامة غير منقوصة ، كما يظهر ذلك مثلا فى (٢٠٧ ب) من المخطوط ، حيث ترد حكاية الرجل الذى أتى إلى سهل يسأله أن يملى شيئاً يأخذه عنه ، إننا نرى فى هذه الحكاية أن أبا بكر الزقاق (ت ٢٩٠ هـ) يلفت انتباه الراوى إلى أنه ترك الجزء الأخير من حديث سهل ، مع أن هذا الجزء الأخير ليس إلا عبارة قصيرة وهى « والإخلاص التبرى » .

على أن معظم ما ورد بهذه المخطوطة معزوا إلى سهل يمكن توثيقه بمعارضته بكثير من المراجع القديمة الأصلية ، التى سجلت بعض أقوال سهل وتعاليمه . ومن هذه المصادر بلا شك مؤلفات سهل الأخرى ، التى أمكننا العثور عليها مثل رسالة الحروف ، كما نجد بعض هذه الأقوال وارادة فى التفسير ، فى الوقت الذى نوثق ما ورد فى التفسير بما ورد من تعليقات سهل على الآيات القرآنية فى الكتب الأخرى .

وهكذا ترانا نطبق فى التحقيق وتلك الدراسة نوعاً مضنياً من تلمس التوثيق . ونرى أن ذلك خير ألف مرة من التوثيق المتحصل عليه من مجرد تعدد نسخ المخطوط ، لأنه كثيراً ما يتفق أن تكون النسخة المعتبرة واحدة ، على حين تكون سائر النسخ عالة عليها .

ومهما يكن من شىء فقد استطعنا أن ننتفع بالمادة التى تركها لنا سهل بالرغم من أننا لا نملك نسخاً أخرى لأى من هذا المخطوط ، أو من رسالة

---

(١) عثرنا على نسخة فى مجاميع تضم الكتابين ، وقد تأكد لدينا تأثر الصقلى تأثراً كاملا بآراء سهل التسترى ، وتجاوز ذلك إلى تقليد الأسلوب كما سيتضح من النشرة . وقد وقفت هذه النسخة بتاريخ ٥٠٦ هـ على يد الفقية على بن محمد المرق .

الحروف . وإننا لنؤمن بهذا المنهج وجدواه فى التوثيق وقد اتبعته فى توثيق لرسائل الجنيد وتصحيح بعض الرسائل ببعض ، إيماناً بأنه لا يفسر كلام الرجل حقاً إلا كلام الرجل نفسه،وسنرى خلال هذه الدراسة مدى النفع الذى يحققه هذا المنهج فى مجال توثيق أقوال سهل وآرائه من خلال مؤلفاته ، ثم من خلال المؤلفات الصوفية الأخرى ، التى احتفظت ببعض هذه الأقوال وتلك الآراء .

وقبل أن نبرح الحديث عن مخطوط كوبرولو ، ذلك المخطوط الذى يمثل القسم الأول منه الأقوال السهلية ، التى كانت فيما يبدو أجوبة عن أسئلة وجهت إليه — قبل أن نبرح هذا الحديث ، نود إثارة نقطة هامة حول جمع مادة هذا المخطوط .

لقد ورد فى هذا المخطوط أن أبا الحسن أحمد بن سالم هو الذى قدم خمسة آلاف سؤال كتابة إلى سهل بن عبدالله التسترى وهذا الخبر يمكن أن يكون صحيحاً إذا قبلنا قول الذهبى (تاريخ الإسلام ورقة ٧١ ب) أن أبا الحسن هذا « قابل سهلا وتلقى كثيراً من تعاليمه الصوفية ، لأن والده كان تلميذاً فى خدمة سهل » .

ولكن هذا الخبر نفسه لا يتسق مع ما ذكره الذهبى من أن أبا الحسن ابن سالم عاش حتى سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م وأنه مات وله من العمر تسعون سنة . ونرى أنه لابد أن يكون هناك خطأ من نوع ما .

إننا إذا قبلنا قول الذهبى أن أبا الحسن توفى وله من العمر تسعون سنة ، وضممنا هذا إلى التاريخ المرجح لوفاة أبى الحسن وهو عام ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م لا ٩٩٩/٣٩٠ كما سبق ، كان معنى هذا أن أبا الحسن كان له من العمر ثلاث عشرة سنة عند وفاة سهل . وبالرغم من أنه ليس مستحيلا أن يتمكن غلام فى الثالثة عشرة ، من وضع هذه الأسئلة كتابة وتقديمها إلى سهل ، إلا أن ذلك لا يخلو من التساؤل لبعد احتماله على أية حال .

والواقع أننا نجد خلطاً مشوشاً بين ابن سالم الأب والحفيد . وقد وقع هذا الخلط فى مؤلفات صوفية كثيرة ، بل إننا نرى هذا الخلط أحياناً فى كتاب

اللمع لأبى نصر السراج ، مع أن السراج نفسه كان من الأصدقاء المقربين إلى ابن سالم الابن . ونجد أمثلة لهذا الخلط فى صفحتى ١٧٧ ، ٢٩٣ من نشرة نيكلسون ، نجد نفس الخلط فى التفسير . حيث يذكر ابن سالم الابن ، كراو لبعض القصص المتعلقة بكرامات سهل أثناء إقامته فى خدمته . ونعتقد أن منشأ الخلط ربما كان من حذف بعض الأسانيد أو الاقتصار على عبارة ابن سالم.

على أنه ليس من المستبعد عقلا أن يكون الابن — قد سجل كتابة الأسئلة التى وضعها والده لسهل ، وبهذا المعنى يمكن أن يقال أنه كتب هذه الأمثلة والإجابة عليها .

مدى وثاقة هذا المخطوط

إن من المهم أن نلاحظ أن معظم الرواة الذين ذكروا فى هذا المخطوط — بصرف النظر عن ابن سالم (ابن التلميذ) — كانوا إما معاصرين لسهل ، وإما ممن عاشوا مباشرة بعد سهل ، وبذلك كانوا معاصرين لابن سالم الابن .

ومن بين هؤلاء المعاصرين أبو بكر الزقاق المتوفى عام ٢٩٠/٩٠٢(١) ومنهم أيضاً أبو الحسين على بن محمد المزين ، الذى صحب سهلا والجنيد ، واحتل مكاناً مرموقاً فى ميدان التصوف ، وحظى بقبول الكثيرين من متصوفى عصره . ونرى فيه بوضوح تأثير تعاليم سهل ، كما يعتبر صدى مباشرا لأقواله . وقد توفى بمكة عام ٣٢٨/٩٣٩ (٢)

. ومنهم أيضاً أبو يعقوب اسحق بن محمد النهرجورى الذى سبقت الإشارة إليه والذى تبنى كثيراً من الآراء السهلية ودافع عنها ، ونقل وحكى العديد من أقواله . ولقد توفى بمكة عام ٣٣٠ هـ أو عام ٣٣٣/(٩٤١ أو ٩٤٤) (٣) .

ومنهم كذلك أبو محمد جعفر بن نصير بن القاسم الخواص البغدادى

---

(١) انظر العروسى / نتائج الأفكار القدسية / ١ ص ١٥٧ وقارن ابن الجوزى / صفة الصفوة / ٢ ص ٣٢٤ (ط ١٣٥٥) .

(٢) المرجع السابق / ١ ص ١٩٦ .

(٣) انظر الشعرانى / طبقات / ١ ص ٩٥ وقارن نتائج الأفكار القدسية ١ / ص ١٩٥ .

الخلدى ومكانة الخلدى فى ميدان الرواية الصوفية معترف بها من الجميع ، وإليه يرجع الفضل فى كثير مما حفظ من التراث الصوفى (١) .

ومنهم عمر بن واصل العنبرى وقد ذكر عنه الخطيب البغدادى (٢) أنه بصرى سكن بغداد ، وروى بها عن سهل بن عبدالله التسترى . ويورد البغدادى له حديثاً مروياً عن سهل عن خاله ابن سوار ، ويتصل الحديث بحقد إبليس وآلامه للفضائل التى يتحلى بها الصالحون .

ومن بين هؤلاء الذين عاشوا بعد سهل مباشرة — وبذلك عاصروا ابن سالم الابن — الطرسوسى ، أبو الحسن على بن أحمد بن عبدالله الذى تلقى رواياته من الخلدى ونقل الكثير منها إلى السلمى أبى عبد الرحمن صاحب طبقات الصوفية . وقد توفى فى بخارى ٣٨٢ هـ ٩٩٢ م (٣) .

ومنهم أيضاً أبو سعيد الاصطخرى الذى كان جواباً للآفاق ، وقد تعددت رحلاته إلى كل من البصرة وبغداد ودمشق ومكة ومصر . وقد عهد إلى محمد بن الأشعث — شقيق المحدث المشهور أبى داود السجستانى — ببعض كتبه وتوفى عام ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م (٤) .

---

(١) انظر السمعانى / الأنساب ٢٠٥ ا .

(٢) تاريخ بغداد / ١١ ص ٢٢١ رقم ٥٩٣٨ .

(٣) السمعانى / الأنساب ٣٧٠ ا .

(٤) السمعانى /الأنساب ٤٢ ا .

بسم الله الرحمن الرحيم

المعارضة والرد على أهل الفرق
وأهل الدعاوى فى الأحوال

وهذا هو الجزء الأخير من مخطوط كوبرولو باستانبول رقم ٧٢٧ الذى ضم حصيلة أجوبة سهل بن عبد الله على الخمسة آلاف سؤال التى وجهها إليه ابن سالم . لقد سبق أن ذكرنا أن هذا المخطوط قد كتبه عطاء الله المعروف بنوعى زاده القاضى بمدينة اسكوب عام ١٠٤٤ هـ الموافق ١٦٣٤ م ، وقد نقله هذا الناسخ من أصل قديم لا يعرف تاريخه(١) . وقد نبهنا إلى أن هذا المخطوط يحوى ثلاثة كتب مستقلة تحت العناوين التالية : «كلام سهل التسترى» « كتاب الشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل » بقلم أبى القاسم عبد الرحمن الصقلى المتوفى ٤٢٣ هـ ، وكتاب « المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى فى الأحوال من كلام سهل » (٢) . وهو انتقاء وشرح الصقلى سالف الذكر ، وهو الذى ننشره اليوم .

لقد أشرنا إلى ما بدا لنا من أن أبا القاسم الصقلى قد نقل كلام سهل أثناء سماعه بمكة عام ٣٥٠ هـ بعد حجه مباشرة مما يمنح هذا المخطوط قدراً كبيراً من الوثاقة ولا نستبعد لقاء الصقلى أو اتصاله بابن سالم (الابن) فى مثل هذا التاريخ مباشرة ، أو بطريق غير مباشر (٣) .

---

(١) أنظر من التراث الصوفى جـ١ ص ٨٢ (لكاتب هذه السطور) .

(٢) نفس المرجع ٪ ٨٣ .

(٣) المرجع نفسه قارن Centenatio / ١٠٠ نقلا عن المعالم / ٣ / ١٨١ ط تونس ، قارن أيضاً د . إحسان عباس / العرب فى صقلية / ١١٥ ٪ دار المعارف .

وقد ورد أيضاً أن فى كتاب « المعارضة والرد » بعض أقوال سهل ، محكية على لسان ابن سالم أحياناً ، وعلى لسان غيره أحياناً أخرى . وقد يظن من قراءة هذا العنوان « المعارضة والرد . . . . » أنه كتاب كلامى مخصص للجدل حول الفرق والمسائل الكلامية الخالصة ، ولكنه فى الواقع يضم كثيراً من أوجه النقد الموجه إلى بعض آراء الفرق الكلامية ، وبخاصة القدرية والمرجئة ، ولكن معظم الكتاب مخصص للقضايا الصوفية الخاصة ، ولنقد بعض الاتجاهات أو العادات أو الطوائف الصوفية .

وقد وجهنا النظر إلى فائدة مقارنة هذا الكتاب « المعارضة والرد » بكتاب « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » للإمام الفقيه أبى الحسن محمد ابن أحمد الملطى المتوفى ٣٧٧ هـ ، ونبهنا إلى أن النظرة السريعة ترينا الفرق الواضح بين الكتابين من حيث توفر الملطى على ذكر سائر الفرق الكلامية وعرض آرائها ، ودنو ذلك من كتاب الفرق كالبغدادى والشهرستانى ، فهو بذلك أدنى إلى مؤرخى الفرق الكلامية منه إلى كتاب التصوف .

ولكن ذلك لم يحل دون ملاحظتنا أن هذا الكتاب الأخير « التنبيه والرد . . » — الذى يعتبر من أقدم ما ألف فى شرح أحوال الفرق ، لم يكن إلا صدى لحركة الدفاع والذود عن الخط الفكرى السوى الذى ارتضاه جمهرة علماء أهل السنة والجماعة ، سواء أكانوا متكلمين أو صوفية . وقد وقفنا فعلا على أمثلة للاتفاق الفكرى بين الملطى والتسترى لاسيما فيما يتصل بالقدرية الذين يصفهم أحياناً بالمفوضة(١) .

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن كتاب « المعارضة والرد » يتضمن بعض أقوال سهل — وبخاصة المشكل منها — كما يتضمن شرح الصقلى عليها ، وأن الصقلى

---

(١) التنبيه والرد / ١٦٤ . وقد طبع هذا الكتاب عن النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة فى الخزانة الظاهرية بدمشق ، وقد نشره السيد عزت العطار بتعريف وتقديم الشيخ محمد زاهد ابن الحسن الكوثرى ط ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩م . ويمكننا العثور على بعض المؤلفات التى ما تزال مخطوطة والتى تحمل عنوانا شبيهاً بما نحن بصدده ومنها : كتاب الرد على فرق الضلال لأبى القاسم الكعبى البلخى (مكتبة خـاصة) .

قد كتب شروحه — فى الجزء السابق وفى هذا الجزء — فى القيروان فى حدود عام ٣٩٠ هـ — ٩٩٩ م . أمكننا أن ندرك أن أقوال سهل وآراءه كانت معروفة فى وقت مبكر ، وليس ذلك فى الجانب الشرقى من العالم الإسلامى فحسب ، ولكن فى الجانب الغربى أيضاً ، وذلك بفضل الدور الكبير الذى كانت تقوم به مكة باعتبارها ملتقى للحجيج من مختلف الطبقات من علماء وزهاد وصوفية وغيرهم .

وقد يتساءل الباحث كيف تصدر خبر تسجيل ابن سالم لإجابة سهل عن الخمسة آلاف سؤال التى وضعها له — كيف تصدر هذا الخبر — كتاب المعارضة والرد، مع أن الأليق والأنسب أن يتصدر فى أول المخطوط برمته ؟. ولكن حقيقة اضطراب أول المخطوط وذهاب بعض أوراقه ربما حمل النساخ على إعادة تسجيل هذا الخبر فى نهاية المخطوط توثيقاً له من جهة ، وحرصاً على ألا تفوت الفائدة من جهة أخرى ،ومما يطمئن الباحث لسلامة النقل أن الذى تولى ذلك خبير فى حقل ما ينقل . وهو عبد الرحمن الصقلى الذى ألف عدة مؤلفات صوفية يظهر جلياً فيها تأثر الصقلى تأثراً عميقاً بآراء سهل حول المجتمع والمرأة والزهد وكثير من القضايا الصوفية ، وإن كان الصقلى لم يفقد شخصيته تماماً ، فكثيراً ما خالف « سهلا » فى بعض الآراء وكثيراً ما استدرك عليه بعض الحقائق أو الأفكار .

ومن الملاحظ أن كتاب المعارضة وشرحه لم يحدد ضمن مؤلفات الصقلى كما ورد مثلا « الشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل » ولكن الذى ورد منسوباً إلى الصقلى هو « الشرح والبيان » سالف الذكر ، و « صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء » و « كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان» «كتاب الدلالة على الله » «الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار» ويسمى عادة « بأنوار الصقلى » وقد ورد اسم هذا الكتاب فى المكتبة الصقلية هكذا « جواهر الألفاظ وظهور الأنوار»(١) . وقد عثرنا

---

(١) انظر ص٦٩٨ عن نسخة ليدن رقم ٥٢٦ .

على نسخة فى مجاميع تضم هذا الكتاب الأخير « الأنوار . . » وكتاب « الدلالة على الله » وتحت الطبع نشرتنا لهذا الكتاب(١) القيم ، ومنه يدرك القارىء إلى أى مدى يعتبر الصقلى مدينا لسهل التسترى فى آرائه ودراساته .

ولا نريد أن نعيد ما سبق أن أكدناه من أن الرواة والنقلة لنصوص هذا المخطوط بأكمله قد توخوا سبل التوثيق والضبط لما نقلوا ولما رووا ، باذلين فى ذلك ما وسعهم من جهد . . وقد ذكرنا فى الجزء الأول(٢) بعض الامثلة على ذلك . كما لا نريد أن نكرر ما ذهبنا إليه من أن المنهج الذى تبنيناه فى تحقيق هذا المخطوط الفريد منهج مضن، ولكنه آكد فى باب التوثيق ، وأفضل من مجرد الاعتماد على تعدد النسخ ، إذ أن كثيراً مما ورد بهذا المخطوط يمكن توثيقه بمعارضته بما ورد فى كثير من المصادر الأصلية القديمة التى سجلت أقوال سهل وآراءه ، ومنها ولا شك مؤلفات سهل الأخرى .

وإننا لنؤمن بهذا المنهج وجدواه فى التوثيق ، وقد اتبعته فى تحقيقى لبعض رسائل الجنيد ، وتصحيح بعض نصوصها بنصوص أخرى لنفس المؤلف ثقة منا بأنه لا يفسر كلام الرجل حقاً إلا كلام الرجل نفسه .

إن ما ذكرناه فى من مبررات الثقة والوثاقة لهذا المخطوط ينسحب طبيعيا على الجزء الذى ننشره اليوم . لقد بينا هناك أهم الأعلام الذين كانوا قنوات نقية لنقل تراث سهل وناقشنا مشكلة المراد بابن سالم وعما إذا كان المراد به تلميذ سهل أو المراد ابن التلميذ ، وانتهينا إلى أنه بمقارنة أقوال الذهبى وما ورد عن السراج أبى نصر فى « اللمع » يدل على أنه قد وقع خلط وتشويش بين ابن سالم التلميذ وابنه ، وقد وقع الخلط فى مؤلفات صوفية كثيرة ، والعجيب أنك

---

(١) وقفت هذه النسخة بتاريخ ٥٠٦ هـ على يد الفقيه على بن محمد المرق .

(٢) ص ٨٦ وما بعدها (ط دار المعارف ١٩٧٤) .

قد تجد هذا الخلط فى كتاب اللمع لابى نصر السراج مع أن السراج نفسه كان من الاصدقاء المقربين إلى ابن سالم « الابن » ،وقد أشرنا إلى أمثلة هذا الخلط فى صفحتى ١٧٧ ، ٢٩٣ من نشرة نيكلسون ، وفى تفسير القرآن العظيم للتسترى .

والسر فى هذا الخلط راجع بلا شك إلى حذف بعض الأسانيد فى الرواية أو الاقتصار على عبارة ابن سالم بغير كنية أو تفصيل .

تأثير تعاليم التسترى

مما لا جدال فيه أن تراث التسترى بما يتضمن من آراء ومفاهيم وأفكار تجد سندها الأكمل فى القرآن والسنة ، قد كان له تأثير واضح على من أتى بعد التسترى من صوفية وعلماء ، سواء أكان هذا التأثير من الوجهة العلمية المدونة ، أو من الوجهة الروحية المعاشة .

لقد كانت أقواله مشهورة مبثوثة بين صوفية القرن الرابع ومن تلاهم وكان يستشهد بها فى كل مناسبة تتصل بهذه الأقوال أو تتعلق بهذه الحالات الروحية التى كان يعانيها السالكون ، ويكفى أن تلاحظ أن أقوال هذا الصوفى الكبير كانت موضع استشهاد حتى من أولئك الذين أشيع عنهم أنهم خصوم التصوف ونقاده من أمثال عالمنا الفاضل «ابن تيمية» و«ابن القيم» رحمة الله عليهما ، وما ذلك إلا لما لمسا من استقامة ونفع هذه الأقوال الصادرة عن عمق إيمان، وصلاح عمل، وصدق تجربة .

فإذا نظرنا إلى كتب التصوف المشهورة ألفينا مؤلفيها يحتفظون لسهل التسترى بمكانة ممتازة بين رواد التصوف ، ويعرضون ما أعجبهم أو ما نفعهم من أقواله . . ولكن الأهم من ذلك أننا نجد من هذه الكتب ما يكاد يقصر اعتماده على تراث التسترى كله من حيث منهجه ومعالجته لأهم القضايا الروحية كالغيبة والذكر والزهد وما إليها .

وقد نبهنا فى الجزء الأول من هذه السلسلة إلى تأثير التسترى فى الحلاج باعتباره تلميذه فى مقتبل الشباب ، ووعدنا بأن نشير إلى بعض ملامح تأثير التسترى فى أبى طالب المكى باعتباره مؤلفاً لكتاب غاية فى الأهمية بالنسبة للتصوف وهو كتاب « قوت القلوب » .

وقد أشرنا إلى أن أهمية هذا الكتاب ترجع إلى اتساق منهجه وانتظام

مسائله مما أغرى الإمام الغزالى بأن ينهل منه كثيراً وأن يهتدى ببعض طرائقه ومعالجته فى كتابه القيم « إحياء علوم الدين » .

وها نحن أولاء نعرض على القارىء بعض ما تيسر لنا من الملاحظات الدالة على تأثر « المكى » بسهل بن عبد الله ، ولا حاجة بعد ذلك إلى القول بكيفية تأثر التسترى على الغزالى ؛ مادمنا قد عرفنا تأثر الغزالى « بالقوت » عمدة ما ألف المكى .

إن هذه الملاحظات التى أبديناها بهذا الصدد لا تعنى الاستيعاب والاستقصاء والشمول ، فلذلك دراسة مستقلة إن شاء الله ، وحسبنا الآن أن نستعرض هذه الملاحظات الكاشفة المؤيدة بالنصوص لندرك مدى أهمية تعليم هذا الصوفى الكبير بالنسبة لمن كتب فى التصوف بعده ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا التأثير لم يقتصر على مجرد النقل أو المحاكاة والاقتداء العلمى والنظرى ، وإنما امتد إلى أنماط السلوك الفعلية ، وجوانب الحياة الروحية لهؤلاء الأعلام الذين نقلوا عن التسترى — إذا أضفنا كل ذلك — اتضحت الصورة أمامنا لقيمة هذا التراث وحيويته .

بين أبى طالب المكى وسهل التسترى

لقد وصلت تعاليم التسترى إلى أبى طالب المكى – محمد بن على بن عطية الحارثى – المتوفى سنة ٣٨٦ هـ عن طريقين أساسيين : الأول عن طريق المصــادر والرواة الجامعين لأقوال الصوفية على وجه العموم ، والآخر عن طريق ابن سالم ابن التلميذ المباشر لسهل بن عبد الله التسترى ونعتقد أن الطريق الأخير يفوق الأول أهمية وتفصيلا ، ذلك أن المراجع تذكر أن أبا طالب المكى دخل البصرة بعد وفاة ابن سالم (الأب) ، وقبل مذهبه ، والمقصود هنا مذهب الابن(١) .

ويعترف المكى بأنه مدين فعلا لابن سالم بالكثير من ألوان المعرفة الصوفية ويفيض فى التقــاريظ التى يضفيها على ابن سالم حين يعرض علينا أبرز الصفات التى اتصف بها هذا الصوفى الكبير ، ويذكر من هذه الصفات الحصافة والحذر والحرص وخصوصاً بالنسبة لانتقاء جمهوره الذى يراه أهلا لفهم تعاليمه ، والمشاركة فى الحوار الصوفى العميق .

وقد اقتنع المكى بسياسة ابن سالم الحذرة ، وعلل لها بما لا يخرج كثيراً عن السمت الصوفى العام الذى يضع فى اعتباره وجوب تجنب الفتنة وإشاعة البلبلة والجدال . ويسجل بالإعجاب مواقف لابن سالم فى هذا الصدد ضمن القصص التى يرويها عنه المكى «٢» .

والواقع أن المكى لا يشك فى صدق تجربة ابن سالم الصوفية ولا فى نقاء سريرته وكرم سجاياه وقد قال عنه (أى عن أبى الحسن بن سالم)

---

(١) يجوز أن يكون المكى دخل البصرة بعد وفاة ابن سالم الابن سنة ٣٩٠هـ كما هو المرجح بشرط أن نستبعد رواية الذهبى فى تحديد تاريخ وفاة هذا الصوفى فى سنة ٣٩٠هـ انظر مناقشة ذلك فى كتابنا من التراث /١ / ٦٣ .

(٢) راجع مثلا : قوت القلوب / ١ / ١٥٥ ، ١٠٧ ، /٢ / ٧٧ .

أنه كان له من « هذا الطريق مشاهدات ومطالعات وسياحات فى الغيوب وجريان فى الأخريات ، وانقلبت له الأعيان وظهر له العيان ، وطوى له المكان ، ورأى ألف ولى لله تعالى ، وحمل عن كل واحد علما ثم انقطع الطريق بعد فقده ، وعفا الأثر ودرس الخبر »(١) .

وتطالعك فى كتاب المكى « قوت القلوب » آيات الولاء والوفاء لسهل التسترى فى كثير من المواضع ، فهو يقول عنه فى الجزء الأول(٢) « وهو إمامنا وشيخ شيخنا وهو عالمنا ، وهو الذى لا يشك فى فضل معرفته أحد » وكثيراً ما يورد قول سهل ثم يتبعه بقوله « وهـذا كما قال ، وقولنا لقوله تبع »(٣) .

ولا نستبعد أن تكون تسمية كتاب المكى « بقوت القلوب » مستوحاة من تعاليم سهل الذى أكثر من تأكيد فكرة كون الذات الإلهية قوتاً للنفس وللقلب كما عرضنا ذلك فى دراساتنا السابقة ، فكثيرا ما سئل سهل عن القوت فأجاب : بأنه « الحى الذى لا يموت » وقصص حجه إلى مكة وحواره مع رفاقه حول هذه النقطة جد مشهورة .

ولكن الأمر لا يقف عند حد الوفاء والولاء والتقريظ والاستيحاء ، بل إننا نجد المكى يتبنى كثيراً من آراء سهل ويتولى الدفاع عنها بحرارة صادقة ، ومن أهم النقاط التى يتفق فيها هذان الرجلان :

١ — الموقف من بعض الفقهاء من حيث نقدهم وتشديد الحملة عليهم لسعى كثير منهم إلى فتح باب الحيل ، ذلك الباب الذى كثيراً ما ضحى فيه بنقاء الضمير وخلوص النية وهما عماد الحياة الدينية والروحية على وجه الإطلاق . وفى هذه النصوص التى ننشرها نرى سهلا يشير إلى هذا النمط

---

(١) قوت / ٢ / ١٥٢ .

(٢) ص ٥١٢ ، ٢٦٢ ، ٥٣٧ .

(٣) قوت / ١ / ٤٧٧ ، ٢ / ٢٥٣ .

من الرجال الذى إذا سأل عن شىء فقيل له أنه لا يجوز ، قال ماذا أعمل حتى يجوز ؟ فكأنه يطلب إلى المفتين من الفقهاء أن يعملوا حيلهم حتى يظفر بحكم الإباحة لهذا المحظور ، بصرف النظر عن النية أو الإخلاص .

وينقد المكى أبا يوسف صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه ويذكر عنه أنه « كان إذا صار رأس الحول وهب ماله لامرأته واستوهبها مالها فتسقط عنهما الزكاة . ثم يتبع ذلك بنقد مر أليم »(١) .

٢ — ويلحق بطائفة الفقهاء طائفة القراء الذين نالهم نقد شديد من كل من التسترى والمكى ، وخلاصة ما أخذه عليهم هو عدم مطابقة عملهم لعلمهم . ويذكر التسترى فى بعض المواضع أن جميعهم يقرون بتفاهة زينة الحياة الدنيا وعدم دوامها ، ويكثرون من وعظ الناس بذلك ، ولكنهم فعلا يتكالبون عليها ، ويحرصون على تحصيلها مهما كلفهم ذلك ، ومهما كان ذاك على حساب دينهم . وإذا كان هذا عيباً بارزاً فى بعض هاتين الطائفتين فإن الحملة على القراء تبدو أشد وأقسى ، لأن القراء ملازمون للقرآن ومكثرون من تلاوته وتحفيظه، ويجدر بمن هذا شأنه أن يتحلى بمكارمه ، وأن يعمل بآدابه وعظاته ، ولذا ألح التسترى على ضرورة مداومة الصحبة للقرآن ، تلاوة وتأملا بحضور قلب واستشعار خشية وإجلال حتى لكأنه يسمعه من الخالق جل وعلا . وكان يقول : إن لم تكن تحسن الكلام إلى الله فاستمع إلى كلامه ، علك تحظى ببركات فيضه وإنعامه . وهذا ما يفهمه التسترى من قول رسول الله ﷺ بأن القرآن « هو حبل الله » .

وقد ذكر « المكى » أنه حين ختم القرآن وأراد إعادته على شيخه انتهره شيخه وقال له « اذهب فاقرأ على الله عز وجل ، فانظر ما يسمعك منه ،

---

(١) قوت / ١ / ٢٨٦ ، ومسألة تحايل أبى يوسف موضع نزاع لا يخلو من شك وتساؤل ، وإن كان من الصعب تصديق كون عالم جليل يصاحب أبا حنيفة يلجأ إلى مثل هذا اللون من التحايل المكشوف ، ثم يحتفظ لنفسه بمكانة محترمة بين معاصريه .

ويفهمك عنه »(١) . وقد ناقشنا فى الجزء الأول هـذه الفكرة التى تضمنتها مقالة السالمية كما عرضها الإمام عبد القادر الجيلانى فى كتابه (الغنية) بما لا حاجة معه إلى تفصيل (٢) .

وتتكرر دعوة « الملكى » لمريديه أن يحسنوا الإنصات والاستماع والتأمل للقـرآن الكريم وأن يديموا صحبته « فإذا كان العبد ملقياً السمع بين يدى سميعه ، مصغياً إلى سر كلامه ... فلا تسل عما ينتظره من خير وبركة » (٣) .

٣ — ونرى أن أبا طالب المكي يردد ما سبق أن ذكره « سهل » من أوصاف النفس وأوضارها وعلاج دائها فيقول ـ كما قال التسترى من قبل — إن للنفس أوصافاً أربعة جمعت من المعانى المتضاربة ما لا سبيل إلى إصلاحه إلا بالاستعانة بالله ، ففيها من معانى الربوبية — ولعله هنا يقصد السيطرة والهيمنة والتدبير للبدن ، وذلك كما نص عليه التسترى فى قوله « لما أراد الله عز وجل إظهار ملكه ، ملك النفس ملكه بلا استغناء عنه ، وجعلها تدعى ذلك الملك ، وأسر العبد بمخالفتها » وقد سبق أن أشرنا فى الجزء الأول من هذه السلسلة(٤) أن الجانب الأسفل من النفس يضم أربعة ميول خبيثة إذا أطلقت على سجيتها ألحقت العطب بصاحبها وهى الميول الحيوانية المتمثلة فى اللعب واللهو والميول الإبليسية المتمثلة فى التعالى والاستكبار والميول السحرية التى تبدو فى المكر والخداع وما إليهما . ويقترح التسترى علاجاً لكل ميل حتى تصلح النفس صلاحاً تاماً ، فعلاج الميل الحيوانى تقييده وتهذيبه بالإيمان ، والميل الشيطانى يعالج بالصلاة والتسبيح ، أما الميول الإبليسية فتعالج باللجوء إلى الله سبحانه (٥) .

---

(١) قـوت / ١ / ١٢٢ .

(٢) أنظر من التراث . . / ١ / ٣٢٩ — ٣٥٥ .

(٣) قـوت / ١ / ٩٧ .

(٤) ص ١٣١.

(٥) أنظر تفسير القرآن العظيم / ٤٩ ، كلام ٧٨ ، الحلية / ١٠ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

٤ — ويتلاقى المكى والتسترى فى تأكيدهما وإلحاحهما على ضرورة تحرى الحلال الطيب من الطعام كشرط أساسى فى تصحيح الإرادة والسلوك إلى الله سبحانه ، وقد رأينا كيف يبدى التسترى عجبه ودهشته ممن لا يتحرى الطعمة الحلال ومع ذلك يرجو أن يجاب دعاؤه ، يقول التسترى : هيهات هيهات أن تسمع لمثل هذا دعوة ، وقد اختلط بدنه بالحرام . ويقول المكى : الطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان ، فإذا ثبت الأساس وقوى ، استقام البناء وارتفع ، وإذا ضعف الأساس واعوج ، انهار البنيان ووقع ، ولذلك قال تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً »(١) وينعى «المكى» — كما نعى سهل « من قبل » عصره وفساده وصعوبة الحصول على الحلال الخالص لتشابك الحياة وتعقدها واختلاط الأموال والمصالح بصورة جعلت مراقبة الورع أمرا بالغ الصعوبة .

٥ — ونرى المكى يقتنع بوجهة نظر وممارسة سهل بشأن مجاهدة النفس ، هذه النفس التى جبلت على العناد والمخالفة واتباع الهوى ، حتى إننا لنرى « سهلا » يقول إن النفس تسكن عند الأمر ، أى تكسل عند الطاعة ، وتنشط عند النهى ، أى تسارع لارتكاب المخالفات » وأن بلاء الإنسان هو فى الواقع فى صراعه معها كى تنشط عند الأمر وتكف عند النهى ، أى تلتزم بآداب الله ومكارمه . وقد رأينا فى الجزء الأول من هذه السلسلة كيف مارس التسترى ألوان الزهد والتقشف بغية تأديب وتهذيب نفسه . وقد تبنى المكى نظام سهل فى التقلل من الطعام مبيناً فوائد الجوع ومذام الشبع . ويبدو أنه آثر ممارسة ابن سالم الذى كان يقتصر على ثلث البطن ، وقد ذكر من الزهاد والعباد من زاد بالتدريج فترات الامتناع عن الطعام وفى مقدمتهم سهل ابن عبد الله التسترى (٢) . ونكتفى بهذا القدر من نقاط الاتفاق بين المكى والتسترى ، لنسلم للقارىء إلى النص الموثق وبالله التوفيق .

---

(١) قوت / ٢ / ٥٨٦ والآيـة من سورة « المؤمنون / ٥١ » .

(٢) انظر القوت /٢/ ٣٤٢ ، ٤٣ وقارن اللمع ٢٦٩ . ويجب أن يلاحظ أنه فى الغالب إذا قال المكى : قال بعض العلماء فإنه فى الحقيقة يعنى « سهل » . انظر مثلا إشارة كهذه فى القوت /٢/ ٣٤١ بالنسبة لطى أربعين يوماً .

النص

المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى فى الأحوال

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٠٦ أ — حدثنا أبو القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله الزاهد ، بمدينة القيروان ، قال : حدثنا محمد بن عبد الله النهاوندى ، قال : حدثه أبو الحسن أحمد بن محمد بن سالم ، بالبصرة : أنه كتب إلى سهل ابن عبد الله بخمسة آلاف مسألة ، يعنى فى علم التوحيد والمعرفة واليقين والرضا والتوكل ، وعلم النفوس من الصدق والإخلاص والخوف والرجاء والورع والزهد والحياء والمراقبة ، وما أشبه ذلك. قال لى محمد : قال أحمد : أنا أحفظها ، وأحفظ الجواب عنها ، ما حدثت بها أحداً . قيل له : لم يا أبا الحسن ؟ قال : لأنى أقول لكم : قال الله عز وجل ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما تقبلون فكيف غيره ؟

الرزق:

قال أبو الحسن : دخل على سهل بن عبد الله التسترى رجل حسبنا أنه ذو النون المصرى (١) على النعت الذى وصفه سهل ،

---

(١) تجمع المراجع على لقاء التسترى وذى النون ت ٢٤٥ هـ فى موسم بمكة ، كما تجمع على وثاقة الصلة بين العلمين الكبيرين عن طريق تلامذتهما . ويسجل بعضها قصصاً تؤيد تعاطفهما وتلاحمهما الروحى ، وينفرد السيوطى فى «الدر المكنون فى مناقب ذى النون» ورقة ٣ ج بذكر زيارة التسترى لذى النون فى القاهرة ويذكر فى النص الحالى زيارة ذى النون لسهل بتستر بلده . وبنقد هذا النص يبدو لنا أن حادثة اللقاء بتستر ممكنة أثناء شخوص ذى النون للعراق لكن الأسئلة التى ترد هنا على لسانه لا تبدو ملائمة لحال ذى النون الروحى ، الذى يستبعد معها أن يركز ذو النون على الغذاء المادى ، اللهم إلا إذا قلنا إنه من باب التمثيل والشرح لوعظ الغير . والأليق أن تنسب إلى أحد مريدى سلوك طريق التصوف ، ويعزز ذلك نصوص المنشورة فى هذا الكتاب .

فسأله عن الرزق ، فقال سهل : الرزق هو العلم ، فقال : لم أسأل عن هذا ، فقال : عن أى شيء تسأل ؟ قال : عن الغذاء ، قال الغذاء هو الذكر الدائم ؟ قال : لم أسألك عن هذا ، قال : فعن أى ٢٠٦ب — شيء تسأل ؟ قال : عن الأكل الذى هو قوام النفس ، قال : مالك وللنفس ؟ ! دعه على من تولى أول عمرها ، حتى يتولى آخر عمرها .

الابتلاء :

وقال سهل : ما من نبي ولا صديق على وجه الأرض إلا ابتلاه الله ببدنه بعدما كمل حاله . وكان فيما ابتلاه لم يجعل له دواء . لعلها « أو قال » : لم يوجد له دواء . أراد الله ذلك بهم ، ليكفر عنهم سيئاتهم بذلك الدواء ، وما من منافق إذا كمل حاله فى ٢٠٦ا — النفاق ، فأراد أن يقهر الناس به ، إلا ابتلاه الله ببدنه ، أى فشغله بذلك الداء عن كثير مما يريد أن يضل به الناس .

التداوى :

قال أبو القاسم : وسمعت محمد بن على الشيرازى بمسجد النبى صلى الله علية وسلم ، يقول : سمعت محمد بن خفيف يقول : أقامت بسهل علة ثلاثين سنة ، لم يسأل الله عز وجل فيها . وكان يسأل الناس فى حوائجهم فتقضى . فسألت محمد بن على : ماكانت العلة ؟ فقال لى : بواسيره(١) .

قال أبو القاسم : وسمعت محمد بن أحمد الطوسى يقول : سمعت إبراهيم بن شيبان الخراسانى يقول : ذهبت إلى سهل بن عبدالله

---

(١) الوارد أن « سهلا » لم يستطب لعلته حياء وخجلا من أن تنكشف عورته مع نصحه للمرضى بالتداوى ، مما يجعل موقف سهل موقفاً ذاتياً محضاً غير ملزم لغيره . ومشكلة التداوى من المشكلات الهامة فى البحث الصوفى ، لكن خلاصة ما التزم به الثقات فى هذا الباب هو التداوى أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم مع تبرئة القلب عن اعتقاد أى أثر جوهرى جاسم للدواء نفسه ، إذ كل ذلك هو رهن بإرادة الله . ولاحظ النص الذى يعقب هذا النص تجد نقد سهل لفهم بعض العامة لفكرة التوكل .

٢٠٧ب — وأنا شاب فلما دخلت عليه قال : جئت يا بجبلى(١) قال : فسكت ، وكان بعينى رمد ، فقال : تقدم أقرأ عليك ، فصمت ولم أقم إليه ، فقال : اعلك من هؤلاء المتوكلين ، تقدم ، فتقدمت إليه ، فقرأ على ، ثم أعطانى قرطاساً ، فقال : اكتحل به . فلما خرجت رميت بالقرطاس ، وعلمت أنه إنما أراد أن يستر على أو كما قال . قال : فنمت ثم انتهيت ، وليس بعينى شىء ، قال أبو بكر بن الطرطوسى فعاش أربعاً ومائة سنة ، لم توجعه عينه بعد ذلك .

الواعظ :

قال أبو القاسم : وحدثنى أبو محمد بن عبد الله قال : حدثنى على بن موسى البصرى ، قال : حدثنى عمر بن واصل ، قال : الحسن بن صالح العبادانى قال : دخلت على سهل بن عبد الله التسترى ، فقلت له : أوصنى أيها الشيخ — يرحمك الله — فإنى أريد الحج ، فقال لى : اوصيك وواعظك معك ، فقلت : ومن واعظى ؟ — يرحمك الله — قال : الكتاب المنزل . فقلت له : الكتاب كبير وفيه مواعظ وتخويف ، فعظنى — يرحمك الله —
٢٠٧ ا — قال : بسم الله الرحمن الرحيم «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر
٢٠٨ ب — إلا هو معهم أينما كانوا»(١) قال : ثم قال : استمسك بما سمعت ترشد . قال : فوالله لقد دلتنى هذه الآية على كل خير .

كتابة المعلم :

أخبرنا أبو القاسم ، وحدثنا أبو الطيب ، العباس بن أحمد

---

(١) يا جبلى (بالباء الموحدة) نسبة إلى الجبل . وفى هذه القصة يظهر فهم سهل الخاص بالتوكل الذى لا يتعارض فى نظره مع الأخذ بالأسباب ، ويلاحظ أن سهل فى كل مناسبة من مناسبات المرض أو التداوى يحرص على إبراز قيمة الصلاح والتقوى فى العون على جلب الشفاء والبرء من الأمراض ، وقصته مع يعقوب بن الليث الصفار جد مشهورة . انظر : من التراث الصوفى جـ١ ص .

(٢) سورة المجادلة ، آية ٧ .

الهاشمى ، قال : حدثنى عمر بن عورى ، قال : دخل رجل على سهل بن عبد الله التسترى ، ومعه محبرة ، فقال له سهل : ماذا تكتب ؟ قال : أكتب العلم : قال : اكتب ، وإن استطعت ألا تموت إلا وأنت تكتب فافعل(١) . فقال له الرجل : فحدثنى ما أكتب به عنك . قال : اكتب : الدنيا كلها جهل إلا ما كان علما ، والعلم كله حجة إلا ما كان عملا ، والعمل كله موقوف إلا ما كان إخلاصا. قال لى أبو الطيب: فلقيت أبا بكر بن الزقاق ، فأخبرته بذلك ، فقال لى : قد كنت فى هذه القصة عند سهل ، وبقى منها لفظة ، قلت تقول رضى الله عنك . قال : والإخلاص التبرى . قال أبو الطيب : فوقع لى أنه التبرى من الحول والقوة فى العمل ، فلم أحتج أن أعنفه(٢) .

مقارنة بين الخلائق :

وحدثنى أبو بكر الطيب على الموازنى ، عن أحمد بن سالم :

٢٠٨ أ — أن سهل بن عبد الله التسترى قال : خلق الله عز وجل للملائكة عقولا بلا شهوة ، وخلق بنى آدم بعقل وشهوة ، وخلق البهائم شهوة بلا عقل ، فمن غلب عقله شهوته كان أفضل من الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله كانت البهائم خيراً منه . قال أبو القاسم : وحدثنى بهذه الحكاية أبو بكر فى مجلسه بمصر ، وكان عندنا عبد الله ابن الحسين أبو محمد المطور ، فعارضه فى الحكاية ، فقال حدثنى أحمد بن الحسن العباس الاصطخرى أنه سمع أبا محمد سهل ابن عبد الله يقول إن الله عز وجل خلق الملائكة بمعارف(٣) ولم

---

(١) فى هذا ما يدحض آراء بعض الدارسين وظنهم معاداة الصوفية للعلم . وبتأمل هذا النص يظهر جلياً نوعية العلم وغايته فى نظر الصوفى الحق .

(٢) هذه القصة تبرز لنا مدى الدقة التى أراد الرواة أن يتحروها فى نقلهم لحديث هؤلاء الأعلام ، وهذا ما يضفى قدراً كبيراً من الثقة على هذه النصوص .

(٣) يقصد من هذا أن الملائكة لا تعانى جهداً فى تحصيل المعرفة ، وإنما تفاض المعرفة عليها دون إعمال الفكر أو العقل ، على حين أن البشر لا بد لهم من المعاناة والكفاح فى مقاومة الشهوة وفى إعمال الفكر ، وفى النص هذا المبدأ الأخلاقى المشهور الذى صاغه أفلاطون وأيده أرسطو ، ووافق عليه المسلمون وهو مبدأ تغليب الجانب العقلى على جانبى الشهوة والغضب .

خلق لهم عقلا ولا شهوة ، وجعل ذلك لبنى آدم لينهوا أنفسهم بالعقل عن الشهوة ، لأن العقل عقال عن الجهل ، وخلق سائر البهائم والعوام بالمعارف والشهوة ، فهم يعرفون من لم يسبحون ، ومن ذلك أن البهائم إذا سرحت مضت بالمعارف(١) إلى أوطانها .

أدب المحبة :

حدثنا أبو القاسم وسمعت أبا بكر الخراسانى يقول : سمعت جعفر الخلدى يقول : سمعت سهل بن عبد الله يقول : رأيت فى المنام ملكين نزلا من السماء بيد أحدهما محبرة وقرطاس ، فقلت : ما تكتبان ؟ فقالا : نكتب أسماء المحبين ، فقلت : اكتبانى فى ٢٠٨ ب — المحبين ، فقالا : لست هناك . قال : فقلت : فاكتبانى من محبى المحبين ، فأتيا على . قال : فكأنى ضربت رأسى فى النوم ، أى أسفاً وحسرة . قال : فإذا بملك — أو صالح أنا أشك أيهما — قال يقول : اكتبا سهلا فى أول المحبين (٢) . ومن الرواية الأولى.

الفقه الحقيقى :

سئل سهل بن عبد الله — رحمه الله عز وجل — عن معنى حديث النبى ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » فقال : الفقه فى الدين هو الفقه بعبادة الله عز وجل وطاعته ، فيما تعبده الله به : من باطنه وظاهره . قال أبو محمد : وقد روى أن الفقهاء سادة ، ومجالستهم زيادة(٣) أولئك الفقهاء عن الله — عز وجل

(١) يقصد بالمعارف هنا « الغرائز » .

(٢) يؤكد سهل فى مواضع كثيرة ضروة التزام الأدب مع الله جل جلاله وعدم التقدم باقتراحات أو طلبات دون رؤية إشارات أو علامات الإذن الإلهى بتيسير ذلك على لسان السائل .

(٣) هنا يجلى التسترى حقيقة طالما غابت عن الكثيرين وهى أنه لا يعادى الفقهاء الحقيقيين بل هو يبجلهم ويعتبرهم سادة ، وهم هؤلاء الذين فقهوا أمر دينهم وطبقوا مقتضيات هذا الفقه الصحيح ، وتأمل الصفات التى يذكرها التسترى لهؤلاء الفقهاء ، ثم تأمل الصفات التى يخلعها على هؤلاء المتظاهرين أو المزيفين .

أمره ونهيه — هم الذين اجتنبوا النهى ، وعملوا بالأمر سراً وجهراً ، ومعنى مجالستهم زيادة : إذا جلس إليهم العبد زادوه بالله معرفة ، وفى الله رغبة ، ومنه رهبة ، فيكون بذلك زائد الحال ، رفيع المكان ، لا كالذى هو اسم بالظاهر ، المتأول للدنيا بهواه للذة نفسه ٢٠٩ أ — المحب للتفاخر لأجل فقهه ، الذى جعله عرضاً للدنيا وسمعة للشامتين.

وقال : العارف بحاله أفضل من العالم بحاله .

خلال الألوهية :

وقال : ما من ملك من الملائكة ، ولا نبي من الأنبياء ، ولا صديق من الصديقين ، فى غير هذه الأمة ، إلا وهو يرى نفسه فى ٢٠٩ أ — أحسن حالاته وأشرفها وأسنى حالاته عند الله أن لو طالبه الله به لكان مستوجباً للنار ، إلا أن يعفو عنه أو يرجو مع هذا العفو (١) .

الرحمة :

وقال : العاصون يعيشون فى رحمة الحلم (٢) ، والمطيعون يعيشون فى رحمة القرب .

المعرفة :

وقال : من عرف الله عز وجل أناله الله معرفته ، ومن أناله الله معرفته جوزه أمره على كل شيء دونه (٣) .

---

(١) لعل سهلا يريد أن جلال الله سبحانه وما ينبغى له يجعلان رؤية المرء نفسه موفياً بحقه — يجعلان مثل هذه الرؤية زلة تستوجب النار لما فيها من الظن بالكمال النفسى والتباهى به مع الفرق الهائل بين ما ينبغى له سبحانه ، وما يمكن للإنسان القيام به من باب قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره » . وقد أشار التسترى فى غير هذا الموضع إلى أن الله سبحانه لو حاسب الملك المقرب بعدله — لا برحمته وفضله — لعذبه .

(٢) تأمل الفقه الأصيل لفهم طبيعة المعصية ، والتمييز بين لونين من ألوان الرحمة الإلهية .

(٣) هنا تتضح الصلة بين هذا وبين ما ورد من أن من أطاع الله أطاعه كل شيء .

وقال : مثل المعرفة مثل السراج ، ومثل العقل مثل الفتيلة ، ومثل العلم مثل النار ، ومثل المزيد مثل الزيت ، فعلى قدر المزيد من الله عز وجل يضىء لهم النار .

غـــاية الخلق :

وقال سهل : ما خلق الله تعالى الخلق لأنفسهم ولا لغيرهم، ٢٠٩ ب – إنما خلقهم إظهاراً لملكه ، والملك لايكون إلا قوله عز وجل : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »(١) فلابد للخلق أن يعبدوا شيئا ، فمن لم يعبد الله عز وجل فلابد له أن يعبد شيئاً . ومن لم يطع الله تعالى فلابد له من أن يطيع شيئاً ، ومن لم يتول الله فلابد له أن يتولى غير الله ، وكذلك جميع الأشياء « ولذلك خلقهم »(٢)

القـــدر :

وقال : يجب علينا الإيمان بالقدر والسكوت عنه .

وقال : لا تكلموا فى ذات الله ، ولا فى علم الله ، ولا فى قدر الله ، ولا تضعوا المعاداة لمن عصى الله(٣) ولا تقطعوا رجاء أحد من أهل القبلة .

وقال : من تكلم بالقدر بعد الإيمان به فقد خرج من السنة ، يقول النبى ﷺ : عزمت على أمتى ألا يتكلموا فى القدر .

فهم القرآن :

٢٠٩ ب– وقال : يعطون فهم القرآن : لكل حرف ذهن ، ولكل ذهن ألف فهم ، ولكل فهم ألف فطنة كل فطنة لا تقوم لها السموات

---

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

(٢) سورة هود ، الآية ١١٩ .

(٣) يتضح من هذا رأى سهل فى أن التدين فى نص التسترى فهم وحصافة فى التعامل مع من صدرت منه زلة أو هفوة ، والتسترى هنا ينصح بعدم المعاداة ومعنى ذلك اتباع أسلوب ينم عن الرحمة والرعاية بحيث نكسب ثقة هذا المخطىء حتى يقلع عن معاصيه ، أخطائه وهذا أسلوب تربوى يشهد بسلامته علم النفس الحديث .

والأرض (١) .

وقال سهل : إن الله عز وجل جعل للقلم فى فهمه وللوح فى حفظه ٢١٠ أ — مقاماً وجعل لسائر خلقه ذلك المقام . ولا يكون للزاهد مقام عنده وهو راغب ؟ ومتى جلس إليه الخائف قام من عنده وهو آمـــن .

الفقهـــاء :

إنما جعل الله الفقهاء قادة للناس(٢) ، لعلمهم وعملهم بما تعبد الله عز وجل به عباده من العمل بالعلم ، حتى يقربوهم منه ، ويوطنوهم المعرفة به ، وقد فرض الله تعالى على العباد أن يكونوا فقهاء علما بما يعملون به مما لزمهم العمل بالعلم والمعرفة به وله .

الارادة الالهية وأفعال العباد :

وقال سهل : الوحدانية فى الأصل أنه كان ولم يكن شىء فهو فرد ، علم وشاء ، وقضى ، فقدر ووفق وخذل وتولى وعصم وأثاب وعاقب . والأعمال تنسب إلى العبـــاد ، والبداية منه والتمام عليه (٣) .

اثبات الصفات :

لم يعص العاصى بغلبة ، ولم يطع المطيع باستغناء ، فالأشياء كلها بعلم الله وقدرة الله ، وليست هى العلم والقدرة ، ولكنها بعلم

---

(١) من المبادىء المسلم بها لدى التسترى عدم تناهى المعانى الممنوحة للقرآن الكريم باعتباره اللا متناهى : وينكشف من معانيه بمقدار صلاح الإنسان وتقواه وبمقدار تقدم السير فى الحياة وهذا قة الأعجاز الالهى .

(٢) يدل هذا النص دلالة قاطعة على اقتناع التسترى بدور الفقهاء وقيمتهم فى المجتمع من حيث كونهم رواداً وقدوة لمواطنيهم ، ولم يكن ذلك لمجرد علمهم، بل لتطبيقاتهم العملية لمعرفتهم الفقهية . وهذا التطبيق أمر لازم بدونه لا تكون لهم هناك قيمه حقيقية .

(٣) لاحظ ورود هذه المتقابلات باعتبارها من آثار الصفات الإلهية التى تنتهى أخيراً إلى مبدأ التوحيد بالرغم من تنوعها وتقابل آثارها .

وقدرة . ويقال لمن أنكر هذا : أخبرنى عن الله عز وجل : أهو تام كامل ؟ فإن قالوا : نعم ، فيقال لهم : فهو مع تمامه وكماله هو هو أول وهو حى وهو عالم وهو قادر ،أى فلابد من نعم . فيقال لهم : هذه صفات الذات ، والأشياء كلها داخلة فى هذه ، وهذه

٢١٠ ب — الأفاعيل كلها فى القدرة ، فهو حى عالم قادر جل ثناؤه :

قدم القرآن :

وسئل عن القرآن : أقديم هو ؟ فقال : الله جل ثناؤه لم يزل قديما قدس نفسه ، والقرآن من علمه ولم يزل الله عالما .

المرجئة والقدرية :

وسئل عن المرجئة والقدرية فقال : قال قوم من المرجئة : من زعم أن له نجاة يوم القيامة فهو جى .

٢١٠ ب وقال قوم : كما لا ينفع مع الكفر شىء من البر ، كذلك لا يضر مع الإيمان شىء من الإثم ، فما بين هذين القولين فهو مرجىء .

وقال قوم من القدرية : ليس لنا وإلينا شىء ، إنما نحن كالباب . وأضافوا الأشياء كلها إليه(١) .

وقال قوم : ليس لله شىء ، إنما الأشياء كلها منا سبب ، والسبب والأسباب كلها إلينا وفينا ونحن . والسبب كله منا ، فقد

---

(١) المشهور عن القدرية فى التراث الكلامى أنهم القائلون بقدرة الإنسان على خلق أفعاله وكسبها،ويذكر البغدادى فى « الفرق » أنهم لأجل هذا سموا قدرية ، ويكذب البغدادى رواية الكعبى المعتزلى أنهم يرون أن العباد يفعلون أعمالهم بالقدرةالتى خلقها الله سبحانه فيهم . وقد تشهد رواية الكعبى لرأينا فى إمكان قراءة « القدرية » بضم القاف — « جمع قدرة » إشارة إلى هؤلاء الذين يدافعون عن وجود قدرة إنسانية بإزاء هؤلاء الذين ينادون بقدرة واحدة إذا أطلقت فهم منها أنها قدرة الله جل جلاله . على أن يكون اللفظ بفتح القاف بالنسبة لهؤلاء الذين اتخذوا القدر تعلة وتبريراً لأعمال الإنسان، أو هؤلاء الذين رفضوه كحركةمضادة للحركة السابقة . ومن المهم أن نعلم أن لفظ « القدرية » لم يقتصر استعمالهفى المحيط الإسلامى على فرقة متميزة تنادى بحرية الإنسان وقدرته كما هو شائع . وما زالت فكرة نيلينو التى تشير إلى أن القدرية هم من شغلوا أنفسهم بمشكلة القدر ، تحمل ثقلا وتلقىتأييدا من نصوص تتكاثر . والنص الحالى قد يشهد لهذا .

استغنوا عن الله ، فيما بين المقالين ما قاله القدرية . فقيل له يا أبا محمد : فالصواب من هذه المقالات ويضيف الخير إلى الله عز وجل ، ويضيف السيئات إلى نفسه ، ويلجأ إلى الله ويسأله الخلاص من هذه الاستطاعة التى أعطى ، ويستعين بالله عز وجل على ما ألزمه الله من أداء حقوقه والثبات.

٢١١ أ فهذا أبدا فقير إلى الله ، محتاج إليه ، مضطر إليه وإلى الاستعانة به. ومعنى يضيف السيئات إلى نفسه ، أى بالعمل على الإيمان بأنها خلق لله وقضاء وقدر ومشيئة لله عز وجل . وسئل عن الاستطاعة فقال : قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل قيل : فكيف ذلك ؟ وإنما اختلف الناس (فى) « مع » و« قبل » فقال سهل : أما التى قبل الفعل فهى المعرفة التى يثبت بها الربوبية ، إذ قال « ألست بربكم قالوا بلى »(١) وأما التى مع الفعل فمشيئة للرب جل وعز ، وأما التى بعد الفعل فمعرفة الشكر ، أى إذ نجا والتوبة أى فيما قدر .

وسئل عن قول النبى ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس كافة حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق وحسابهم على الله » .

قال سهل : معناه بأحكامها يعنى: الصلاة والزكاة والصوم والحج . قال سهل : فمن هنا وجب أن يستتاب من ابتدع ، فإن

٢١١ أ تاب وإلا ضربت عنقه . أول ذلك فعل أبى بكر رضوان الله عليه لأهل الردة ، وهلم جرا إلى يوم القيامة .

الإيمان ومتعلقاته :

٢٢١ ب — قال سهل : والإيمان قول وعمل ونية ، وما وافق السنة يزيد وينقص(٢) ويقوى ويضعف ، يقوى بالعلم ويضعف بالجهل ،

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٢ .

(٢) يوضح التسترى هنا رأيه فى مشكلة هامة من مشكلات علم الكلام وهو ينص فى هذا السياق على قبول الإيمان للزيادة والنقصان ، ويضيف إلى ذلك أسباب هذا وذاك . ويلاحظ أن التسترى يمزج بين الأصول المتفق عليها لكل من الإسلام والإيمان ويصر دائماً على ضرورة تحقق فضيلة الإخلاص لله فى العمل،وهذا ما يحرص عليه التصوف دائماً على حين أنه ربما أغفله=

ذلك بعلمه وهذا بجهله ، القول قول باللسان لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والإيمان إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والنشور ، والعمل بالجوارح : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج وإقامة الأحكام والنية والإخلاص لله في العمل ، والإيمان بقضائه خيره وشره وحلوه ومره حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وأفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم أجمعين . والقرآن كلام الله فإن زادوا فقل : غير مخلوق . والصلاة خلف كل بر وفاجر ، ولا تكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ، ولا تشهد لأحد منهم بجنة ولا نار ، وسبعة من أمور الآخرة من جحدها فهو مبتدع : عذاب القبر ونعيمه ، والميزان والصراط ، والحوض ، والشفاعة ، ودخول النار ، والخروج منها ودخول الجنة ، والزيادة ، وهو النظر إلى الله عز وجل .

الاختصاص والاصطفاء :

١٢١٢ — وقال سهل : يجب علينا الإيمان بالخصوصية ، بأن الله يخص من يشاء بما يشاء فإن قالوا : بسبب أنه قد علم منه أنه يعمل هذا الشيء قيل له هذا العلم الذى علم منهم أنهم يعملونه كان خارجاً من ملكه ، فإن قالوا : نعم ، لزمهم الكفر ، فإن قالوا : فى ملكه علمنا أن الخصوصية ثابتة ، وسببها الإيمان بالله عز وجل ، يخص بما يشاء من يشاء تفضلا .

شبه الزنادقة والرد عليهم :

وقال سهل : من زعم أنه لا يموت قيل له : لا تنم فإن الذى

= كثير من الفرق الكلامية . ويثبت التسترى هنا أيضاً فكرة الاصطفاء والاختصاص بناء على محض الإرادة الإلهية دون ادعاء استحقاق ذاتى من الجانب الإنسانى ليقطع التسترى بذلك الطريق على المولعين بتعليل أحكام الله وأفعاله كالمعتزلة مثلا . لكن كون أفعال الله غير معللة لا يعنى أنها مبنية على الاعتباط والصدفة فإنها كلها لا تفارقها الحكمة والإتقان ، وإنما يعنى أنه ينبغى فى الأدب مع الله ألا تحاول إثبات استحقاق من الجانب الإنسانى بالقدر الذى يجحد فضل الله أو يقلل من شأنه ، وفى ختام هذا النص يرد التسترى على منكرى البعث والموت وعذاب القبر بأمثلة من الحياة اليومية وهى قريبة ومقنعة .

ينيم هو الذى يميت ، ومن زعم أن عذاب القبر ليس بحق قيل : له ادفع عن نفسك الرؤيا السوء وما حل بك فى نومك . ومن زعم أن الله عز وجل لا يحيي الموتى فقل له : إذا نمت فلا تفق من نومك ، فإن الذى ينبه من النوم هو الذى يحيي الموتى ، وهـذه حجة على على الزنادقة .

التوحيد :

٢١٢ أ — وأتى رجل إلى سهل رحمه الله فقال له : أوجدنى حجة تدل على التوحيد . فقال له : الحزم(١) دليل على ذلك . قال : عندك شىء غير هذا ؟ فقال : لو كان غير هذا كان يجوز أن يكون معه شريك — وكان الرجل متهماً .

السنة بين الإيمان والعمل :

٢١٢ ب — وقال سهل : الإيمان بالسنن فرض والعمل بها سنة ، أى سنة غير متروكة ، والسنة سنتان : سنة العمل بها هداية ؛ وتركها ضلالة ، وسنة العمل بها ترغيب وتركها ترك فضيلة . وقال سهل : الإخلاص فى السنة فرض ، وعملها نافلة يريد ما ليس بضلالة ، والإخلاص فيها فرض أى ما وسع فيه ورخص ، والإيمان بالسنة فرض وعملها سنة والإخلاص فيها فرض(٢) .

---

(١) لعل سهلا يقصد هنا البت فى الأمور والحسم فى الأحداث الكبيرة والمصائر النهائية ، ويبدو من النص أن الرجل لم يقتنع بدليل قوله للتسترى : أعندك غير هذا ، وكأن التسترى يريد أن يقلب عليه الأمر ويلزمه نتائج فرضه من إمكان إيراد دليل أو مظهر آخر يدل على التوحيد . . ويظهر كذلك أن الرجل متعنت مصر على إنكاره .

(٢) هنا تبدو دقة سهل فى التفرقة بين الإيمان والإخلاص فى السنة فهو فرض ، أما العمل بها فهو سنة كما وضحه التسترى وهذا مما قد يخفى على كثيرين ممن يظنون أنه ما دامت السنة دون الفرض فإن الإخلاص فيها دون الإخلاص فى غيرها من الفروض . وينفى التسترى هذا معلناً أن الإخلاص ذاته فرض على كل مسلم ، مهما كان نوع العمل : فرضاً أو سنة أو نافلة .

الإقرار بالشهادة :

وسئل عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، « يؤتى بالعبد يوم القيامة ليس له حسنات إلا رقعة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فتوضع على ساقه يوم تلتف الساق بالساق . قال : هذا عبد فارقت روحه جسده على شهادة أن لا إله إلا الله . معناه عبد ختم له بهـا فقبلت منه .

الأمة الإسلامية :

وسئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أمتى أمة مرحومة لا حساب عليها ولا عذاب » قال : لا حساب عليها كحساب الكفار ولا عذاب الأبد :

الخير والشر ونسبتهما :

وقال سهل : الخير من الله أولى أن ينسب إليه ، ونحن أولى بالشر أن ينسب إلينا ، والشر منه وبه وليس إليه ، والخير منه وبه وإليه .

القضاء والقدر :

٢١٣ أ وقال سهل : العلم والكتاب والقضاء والقدر . فالعلم أقدم من الكتاب ثم القضاء والقدر ، ولا يخرج الخلق من القدر ، والعلم الأصل لا يخرج منه أحد ، والكتاب فى القرآن أن الله تعالى هو الذى يمحو مـا يشاء ويثبت . والقضاء هـو الحكم الذى يثبت والقدر إظهاره فى الخلق . وفضل الله عز وجل بعض عباده على بعض من غير أن يكون من العبد سبب ، لكى يعرف هذا الفضل ويدعو لهذا حتى يتفضل بما تفضل به على غيره . وإذا أعطى الله عبداً ولم يعط آخر فليس هذا ظلماً ، لأنه لم يمنعه شيئاً هو له ،

٢١٣ أ وفضله يعطيه من يشاء ، والله تفضل على أبى بكر وخصه بما لم يتفضل على أبى جهل ولم يخصه .

الابتلاء بالأضداد :

وقال سهل : خلق الله عز وجل هذا الخلق ، وابتلاهم بالأمر والنهى . ومعنى أصول بلوى الخلق فى عشرة أشياء : الغنى والفقر والصحة والسقم والعز والذل والعلم والجهل والحياة والموت. وأحوال الدنيا كلها بلوى واختبار ، وليست الآخرة داربلوى واختبار إنما هى دار مجازاة بالخير والشر .

فطنة المؤمن :

٢١٣ أ وسئل عن معنى الحديث « لو كانت الدنيا دما كان قوت المؤمن منها حلالا (١) . فقال : لو كانت الدنيا كلها جهلا كان قوت المؤمن منها حلالا . معنى لو كانت جهلا بالفتن وترك العمل بالعلم كان للمؤمن أن يأخذ منها ، وليس له أن يقصد إلى الحرام بعينه إلا أن يكون مضطراً لا يجد غيره .

حقيقة الإعجاب بالعمل الصالح :

وسئل عن قوله: إنى لأعمل العمل فأسره فيطلع عليه فيعجبنى. قال : يعجبه من جهة الشكر لله الذى هو أظهره عليه .

قال عبد الرحمن : يعجبه من جهة الاقتداء به فى العمل الصالح . ويجوز أن يعجبه من جهة ذكر الله له به مع نفسه ، جل ثناؤه .

---

(١) لعل مراد التسترى أن المؤمن دائماً إنسان « منتق متحرز » لا يأخذ الأشياء اعتباطاً وإنما يستبرىء لنفسه ولعرضه ، فلو فرض عموم البلوى وفساد الأمور حتى اختلط الحرام بالحلال لنجح المؤمن رغم ذلك فى أخذ ما هو حلال لأنه لا يقوم فى اختياره على الجهل والفتن وإنما يقوم على العلم ومقتضياته ، حتى وإن لم يغن عنه الاحتراس والحرص فإن أخذه يكون حلالا أيضاً لأنه فى كل حال مستحق . اللهم إلا أن يكون مضطراً ، فهنا تصدق عليه القاعدة الإسلامية المشهورة : الضرورات تبيح المحظورات . وهى قاعدة مستمدة من قوله تعالى « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

نسبة الأعمال :

وقال سهل : العافيـــة والبلاء والعصمة والتوفيق والترك والخذلان من عند الله عز وجل ، والأمر والنهى منه والثواب والعقاب إليه ، والأعمال منسوبة لابن آدم ، فمن عمل خيراً وجب عليه الشكر ، ليستوجب المزيد ، ومن عمل شراً وجب عليه الاستغفار ، ليستوجب الغفران .

حد السؤال والجواب :

وسئل عن الرجل يسأل عن الشيء فيجيب ، ثم يريد أن يزيد الشيء فيخاف أن تكون الزيادة هوى ، فقال : إذا سئلت عن الفروض فأجب فيها بجوابها فقط ولا تزد ، وإذا سئلت عن السنة فأجب فيها وبينها وأظهرها وفهمهم ما لا يفهمون ، كي يرغبوا .

٢١٠ أ قال عبد الرحمن : وإذا سئلت عن علم النفوس والمقامات والدرجات فأعط الكل حقه ولا تعده إلى غير حاله ، إن يكن قوياً فعلى قدره ، وإن يكن ضعيفاً فعلى قدره .

وقال سهل : إياك وطلب الحاجة فإن فيها ثلاثة أشياء : طلب الزيادة ومنع الفضل وحب الرياسة . قال عبد الرحمن : يعنى قيام نفسه ، إذا سأل يجب ألا يزيد فى حاجتها .

الله هو الصديق :

وقال رجل لسهل : إنى أريد أن أصطحبك . فقال له سهل : فإذا مات أحدنا فالثانى من يصحب؟ يريد: اصحب الله عز وجل فى فى كل حال ، فإنه الذى تجده فى الدنيا والآخرة .

مراعاة الله فى الفعل والقول :

وقال سهل : كل فعل لا يكون معه « لا حول ولا قوة

إلا بالله العلى العظيم » لا يتولى الله ذلك الفعل ، وكل قول لا يكون معه اشتياق(١) يعاقب عليه يوم القيامة ، وإن كان براً، يعنى أن يقول « إن شاء الله » مع القول ، وكل مصيبة لا يكون معها استرجاع لا تثاب عليها .

حقيقة الزهد والتقشف :

وسئل عن التقشف قال : هذا حمل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أضروا بأبدانهم وأذلوا نفوسهم فى ترك الظفر والشعر ونتن الريح ولباس الخشن ، فلم يرض الله عز وجل ذلك لهم ، فأمر نبيه أن يوسع لهم بالاقتصاد والدخول فيه . قال عبد الرحمن : أى للرفق بنظافة الثوب والبدن ، فكان بذلك كمال دينهم غير مقطوعين عن الحق بحجبه ولا عالين بإسراف ولا مقترين . فقال جل وعز : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »(٢) أى قصداً ، وهم الأكياس الفقهاء والعلماء(٣) .

التقدم فى طريق الأدب الصوفى :

وقال سهل : يرون الأدب أوله المخالفة فمن انتقص من لحمه ولم يظهر عليه داء وهو صحيح الجسم فهو محمود عندهم إلى تمام

---

(١) لعل هنا تحريفا والظاهر أنه يريد المشيئة بدليل قوله فى نهاية النص يعنى أن يقول إن شاءالله ، ويجوز أن يراد بالاشتياق هنا الإخلاص وكون القائل يعنى قوله ويقصد إلى تحقيقه فعلا وهنا يلتزم بالأدب الإسلامى القاضى بتعليق الأمر على المشيئة الإلهية .

(٢) سورة الفرقـــان ، الآية ٦٧ .

(٣) فى هذا النص دلالة صريحة على ضرورة الاعتدال فى مجال الزهد والتقشف مما قـــد يبعد التسترى من المغالاة والإسراف فى هذا الصدد ومما يجعل مهاجمة الخوانسارى فى روضات الجنات / ٣٢٤ ، ٢٥ فى غير موضعها . غير أنه يلاحظ أن من رأى التسترى القسوة على النفس والرحمة بالخلق ، فإذا عرف عن إنسان ما أنه يطبق أقسى أنماط الزهد فلا يقدح ذلك فيه حتى نرى موقفه من الآخرين، ونرى أن التسترى كان قاسياً على نفسه رفيقاً بمريديه.انظر : من التراث /١/١٥٤ وما فيه .

سنتين ، وإن أتم سنتين ولم يظهر له شيء أى من معانى القدرة والكرامات فهو ضائع مضيع لنفسه ضال عن الطريق ميت فى حاله ومن أتى عليه عشر سنين ، ولم ينتقل ، أى من حال إلى حال ،
٢١٤ ب فقولوا له : لا تبغ أى فى طلب غيره ففيه تموت إن دام لك الحال ومن لم يأت بالخير فى ستة أشهر يريد الصوم والصلاة والورع والزهد
٢١٥ أ وغيره من أعمال الخير فيده هباء ، أى فهو ممن يسمع العلم ولا يعمل به ، ومن لم ينقطع من الدنيا فى سره ، أى بالمحبة والإرادة لها ، ولم يعرف قطع عقابه ، أى فقد أحواله التى انتقل منها والذى هو فيه عشر سنين فهو مقطوع به ، أى عن درجات أهل الحقيقة ، ومن لم ينقلب من الحكم ، أى يستخرج العلم من العلم ، والأدب من الأدب ، والحال من الحال ، فى خمس عشرة سنة فهو ضعيف أى عن حال الأقوياء.قيل له : كيف ينقلب ؟ قال : يستخرج الشيء من الشيء .

التنزيه العملى لله :

وسئل عن معنى قول النبي ﷺ فى حسن الظن بالله ، فقال : هو أن ينزه مولاه من التهمة(١) . قال عبد الرحمن : باب فى التنزيه بعد التوحيد التصديق بالرزق المضمون ، ثم بالأجل المحتوم ، ثم بترك الحسد للناس على ما أتاهم الله من فضله .

---

(١) يتجلى هنا التنزيه الذى ينشده الصوفى والتنزيه الذى يعالجه علماء الكلام فالأول يقوم على أساس الموقف العملى الذى يتخذه الصوفى من حيث الثقة الكاملة بالله والنأى عن الظن الذى لا يليق به جل جلاله ، والبعد عن مواضع التهم التى قد ترد إلى خاطرنا دون أن نأبه لخطرها ، ويقاس كمال إيمان المرء بمقدار ثباته وبعده عن الظن الذى لا يتناسب مع فضل الله وشمول رعايته ، ولا يظن أحد أن ذلك من المواطن السهلة ، فقد تدلهم الأمور وتروع الكوارث وتظلم الحياة حتى تختفى كافة الآمال ويظن الإنسان أن الأمر قد انتهى ولم يعد هناك مخرج وإذا بفضل الله ورحمته تدرك الإنسان من حيث لا يحتسب . والقرآن الكريم قد عرض مثل هذا الموقف الإنسانى حتى من الرسل عليهم صلوات الله . يقول جل شأنه : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا . . ».

كمال الأدب :

وقال سهل : أربعة فيها كمال الأدب : التوبة ومنع النفس من الشهوات والصمت والخلوة . ومن لم يؤدب نفسه فى هذه الدار
٢١٥ ب استوجب العذاب فى الآخرة إلا أن يعفو الله عنه .

مسئولية العالم :

وقال لا تأخذوا بزلة العالم ، ومن كان له حال فليعتصم بالعلم من تلك الزلة ، والعالم إذا لم يكن له حال فهو قائد الناس إلى النار ، يعنى أن يكون له حال من أحوال التقوى : إما حياء وإما خوف أو ورع أو مراقبة أو زهد أو نحو هذا .

أنواع الرحلة :

وقال سهل — رحمه الله — الرحلة ثلاثة : من الهوى إلى العقل ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الدنيا إلى الآخرة .

وقال : وثلاث أخر : من الاستطاعة إلى الافتقار ، أى الهرب من ادعاء الحول والقوة ، إلى حول الله وقوته ، ومن النفس إلى التبرى ، ومن الأرض إلى السماء .

٢١٥ ب قيل له : فأى الرحلة أفضل ؟ قال الهرب من الفتنة فى الدين(١) إلى السلامة أو طلب العلم ، وليس بينهما فرق .

وقال سهل : من خرج فى وجه من الوجوه لم يكن من الفرض

---

(١) هذا هو النهج الصوفى الأمثل الذى إذا وجد الفتنة تطل برأسها عمل على إطفائها ولم يشارك فى تأجيجها ، ولا يتجه الصوفى مطلقاً إلى تكفير مواطنيه أو حتى مجرد الاعتقاد بأنه أفضل من أى مواطن مهما بدا هذا المواطن على غير ما يرجى له .

ويحدد التسترى بعد ذلك الأوجه التى يمكن أن يشارك فيها الإنسان وهو مطمئن إلى حسن العاقبة ، وما عداها فهو غير مأمون نهايته . ولا يخفى ما فى ذلك من ضمان للامن الاجتماعى ونشر السلام والمحبة بين ربوع المجتمع .

أو السنة أو السعة أو الآداب أو الأخلاق فهو عذاب على نفسه وعلى من شاركه فيه .

وقال سهل فى جمع الهمم فى الصلاة : هو على وجهين : جمع همة بحفظ الحدود وأداء الحقوق وهذا فرض ، فأما أن تجمع الهم كيلا يقع فى همه شيء ، ولا يرى بقلبه شيئاً ، فليس هذا بفرض . ٢١٦ أ

المقرئون والقراء :

وقال : ما ترى فى القيامة من المقرئين التائبين إلا قليلا من الألوف واحد ، لصعوبة التوبة ، إلا من كان بدءعمله أسس على التوبة ، وترك الآثام فى السر والعلانية . وقد قال النبي ﷺ : « أكثر منافقى أمتى قراؤها » (١) .

خلق المؤمن والمنافق :

وقال سهل : من أخلاق المؤمن ثلاثة : إذا أعطى الكثير شكر ، وإذا أعطى القليل رضى ، وإذا منع صبر .

وقال : لا تقل : العالم بالله لا يفهم ، ولا يخرج من العالم بالله ما لا يفهم(٢) .

العلماء والجهال :

وقال : كره العلماء العزم ، أى البدء فى الخير ، وأمروا بالنية وعاش العلماء بجهل الجهال ، ولم يعاقبوا لجهلهم(٣) .

---

(١) الحديث : رواه أحمد فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير ، كلاهما عن عقبة بن عامر وعن ابن عمرو = رضى الله عنهما . (الناشر)

وقد سبق قول التسترى : الناس أربعة : العلماء والأمراء والصوفية والقراء : فإذا فسد الأمراء فسدت المعايش ، وإذا فسد العلماء فسدت الطاعات ، وإذا فسد القراء فسدت الأخلاق ، وإذا فسد الصوفية فسدت الأحوال (انظر من التراث . . / ٢ / ٣٧) . وقارن رأيه العام فى القراء فى « من التراث » ٢/٢٧٧ وما بعدها .

(٢) قومنا هذا النص بعد اضطراب شديد ، ومعنى عاش هنا المعايشة والمسايرة دون الانخراط فى الجهل .

(٣) يحتمل أن يكون المراد ضرورة سبق العمل بالنية لا الدخول فيه فجأة .

القوة والاستطاعة :

وقال: القوة على ثلاثة أوجه: فالأول يثبت بها العقل والروح وما عبد الله بشيء أفضل منها ، وهي التي يؤدون بها الفرائض في قيامهم وقعودهم واضطجاعهم والثانية يكون بها الطاعة والمعصية، ٢١٦ أ وهي لاكتساب الحال والدخول في السعات . والثالثة لا تكون بها ٢٢٦ ب إلا المعاصي فقط ، لأن اكتسابهم بالهوى ، فصار أكلهم بالشهوات واحتوتهم العقوبات (١) .

أصل الغضب :

وقال : الغضب والحدة من سكون العبد إلى حوله وقوته ، فإذا خرج منه سكن إلى الضعف ، فتولد منه الرحمة واللطف .

العلم والعلماء :

وقال : العالم الذي يعمل بعلمه ، والعالم العاقل الذي يقيس العلم بالعقل .

---

(١) يذكر التستري هنا لفظ القوة بدل لفظ الاستطاعة والأولى في نظر سهل متنوعة بتنوع أثرها ، فمنها ما هو أساسي لثبات العقل والروح ، وهذا النوع موكول إلى سلامة الفطرة التي تدعو مباشرة إلى عبادة الله والاقرار بوحدانيته وهذا النوع فيما يبدو هو الذي بدا أثره يوم الميثاق الذي يعتبره التستري عهداً حقيقياً أخذ على الخلائق،ولذلك يربط بينه وبين المعرفة الأصلية . أما النوع الثاني فقابل لأن يكون أداة خير أو شر ،طاعة أو معصية . وهو متصل بحاجات الإنسان الذاتية التي لا تكون للشر أو للمعصية بذاتها أما النوع الثالث فتصل بالهوى والرغبة الأنانية التي لا تجلب إلا شراً . وينفرد التستري من بين معاصريه برأيه في الاستطاعة حيث يرى وجودها قبل الفعل ومعه وبعده ، فأما التي قبل الفعل فتصلة بالمعرفة الأصلية التي سبق ذكرها وتتفق مع الجبلة والطبع والتي تصاحب الفعل مقترنة بإرادة الله ، والتي تتلو الفعل مرتبطة بإدراك الشكر في الخير والتوبة في الشر . والجدير بالذكر أن الزيدية والمعتزلة رأوا أسبقية الاستطاعة للفعل ، والأولون ينظرون إليها من حيث علاقتها بالأمر الإلهي ، على أن المعتزلة يفهمونها على أنها القدرة على الفعل وعلى ضده، وبعضهم عرفها بأنها سلامة الجوارح ، وهذا رفضه الصوفية، وهناك من رفض اعتبار الاستطاعة سابقة على الفعل على تفصيل كبير انظر في ذلك كله : من التراث الصوفي جـ١ / ٢٦٤ وما بعدها ، وقارن / الأشعري / مقالات / ١ / ٧٢ ، ٧٣ ، الكلاباذي / التعرف/٢٥ . الجيلي / الغنية / ١ / ٩١ .

وقال : الناس موتى إلا العلماء ، والعلماء نيام إلا الخائفون ، والخائفون مقطوعون إلا الراجون . وليس يصل إلا المحبون وهم المؤثرون لله عز وجل على كل حال .

وقال : لايكون العبد بالله عارفاً إلا كان بالله عالما ، ولا يكون عارفاً إلا كان رحمة للخلق ، فالسماء رحمة للأرض ، وبطن الأرض رحمة لظهرها ، والآخرة رحمة للدنيا ، والعلماء رحمة للجهال ، والكبار رحمة للصغار ، والنبي ﷺ رحمة للخلق ، والله سبحانه وتعالى رحيم بخلقه .

تدرج بروز العمل :

وقال سهل : نية العمل غير ما يراد به العمل ، والله عز وجل قبلة النية ، والنية قبلة القلب ، والقلب قبلة البدن ، والبدن قبلة الجوارح ، والجوارح قباة الدنيا ، والدنيا قبلة الآخرة .

٢١٧ أ قال عبد الرحمن : معنى قول أبي محمد نية العمل ، أي إرادة الله به الناس ، والذى يراد به العمل ، فالعاملون فيه على مقامين : واحد يريد الجزاء والمكافأة ، وآخر يريد به الإجلال والتعظيم ، لحقه الواجب له على خلقه ، والله قبلة النية ، أي عليه رقيب بما أراد العامل فى نيته ، والنية قبلة القلب ، أي فالقلب متصرف بالإرادة .

٢١٧ أ المراد النية والقلب قبلة البدن ، أي فى إظهاره فى عقده ومراده ، والبدن قبلة الجوارح ، أي فالجواح ذاهبة مع النية ، والعقد وهمة القلب والجوارح قبلة الدنيا ، أي مستقبل شهواتها ولذاتها ، والآخرة قبلة الدنيا ، أي بالمجازاة بالخير والشر ، ومعنى قبلة الشيء أي مواجهته وقصده فهو وجه لما بعده .

خطوات سير العمل وصحته :

وقال : الناس فى الأعمال على ثلاث منازل : رجل دخل فى بر بنية صحيحة ، فحفظ نيته فى أول العمل وفى وسطه وفى آخره

فسلم ، ورجل دخل فيه بنية فدخل عليه الخلق أى للمراءاة ومحبة الثناء فأعرض عنهم ورجع إلى نيته الأولى ، فسلم ، ورجل دخل بنية فسها عن حاله ، أى حين أتاه العارض فتمادى به حتى فرغ العمل ، فعطب(١) .

٢١٧ ب وسئل عن علم النية ، فقال : لا يعرف العبد حقيقة علم النية حتى يدخله الله فى ديوان أهل الصدق ، ويكون عالماً بالكتاب والآثار وعلم الأقدار .

الحلال والحرام :

وقال : الحلال لأهله أوسع من الحرام لأهله . قيل له : ما الحلال ؟ ومن أهله ؟ قال : الحلال ما يقيم العقل ، أى لا للهوى ، وأهله الذين يأخذون القوام وهو العقل ، وهم النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ومن تبعهم بإحسان .

وسئل عن الحديث : « من عمل بما يعلم علمه الله تعالى بغير تعليم » فقال : هو ميراث الأعمال ، لقوله ﷺ : « بالشكر تدوم النعم » (٢) .

مكانة الصالحين وأدبهم :

وقال سهل : موضع الصالحين يقدرون أن يأخذوا من القدرة

---

(١) المشهور أن الإنسان إذا بدأ عمله بنية صحيحة فقد تم المراد وانتهى الأمر . لكن التسترى هنا ينبهنا إلى حقيقة هامة وهى ضرورة استصحاب النية السليمة ودوامها وثباتها فى وجه المشكلات والمغريات ، ولا يخفى ما فى إشارة التسترى من قيمة فى أصول الصحة النفسية والاجتماعيــة .

(٢) حديث « بالشكر تــدوم النعم » .

ويشهد للمعنى بقوله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

ولا يأخذون(١) .

وكان نبينا ﷺ إماماً فى هذا ، عرضت عليه الدنيا فلم يأخذها .

وقال : إذا هاج فى القلب شىء مما تهوى النفس فذكر العبد قيام الله عليه وأنه يراه ، فأول بركة تدخل عليه من علم حاله أن يزول ذلك عن قلبه ، فلو أن الذى أعطى هذا العبد قسم على أهل مدينة فى تلك الحال لسعدوا جميعاً .

الوسـيلة :

وسئل عن الوسيلة ، فقال : هو القرب(٢) الذى شعبت منه الحياء، قيل له: الحب أفضل من الحياء ؟ قال : الحب الذى يورث

---

(١) لعل المقصود من هذا أن الصالحين يستطيعون الاعتماد على قدرة الله جل جلاله فى إظهار الكرامات واستيفاء ما يطلبون من خلال هذه القدرة لكنهم لا يقبلون تأدباً ، تاركين أمرهم له سبحانه ، فهو الذى يقدر لهم ما يشاء وهم راضون بأية حال يضعهم فيها ، وقد ذكر التسترى فى غير موضع هذه الحقيقة التى توضح أدب السائر إلى الله ، حتى فيما يتصل بالقرب الروحى ذاته ، وبقية النص ترشح ذلك .

(٢) الضمير هنا للحال والشأن،والتقدير . أمرها أو شأنها هو القرب والمراد ما يوصل إليه . والقرب الذى انشعبت منه صفة الحيـاء . ويتحـدث التسترى عن نوعين من الحب :

النوع الأول يورث الخوف فيعود بالنفس إلى شىء من الاغتراب وظل من الجفوة ، ولهذا عد أقل من النوع الآخر الذى يورث الحياء الذى يؤدى إلى مزيد من الشوق . على أن التسترى قد ذكر فى موضع آخر أن « المشتاق محجـوب لأنه لا يشتاق إلا إلى غائب ، ولو امتلأ كيانه ووعيه بالحضرة الإلهية ، مستشعراً شمولهـا وإحاطتها به لصمت وما أبـدى شوقاً . ويضاف إلى ذلك أن التسترى لا يعتبر الحب بثاً للواعج ، أو تعبيراً عن الضنى والوجـد واللوعة ، وإنما يراه فى الملل « التصوف » ، ومن التراث الصوفى من الجزء الأول فليراجع ثم . وهناك نرى التسترى . يذكر أن مزاح الحب أليق بالنساء أما الرجال فأرضهم المعرفـة والصمت تحت ثقل الحقيقة الكبرى التى تخرس دونها الألسنة .

الخوف ، الحياء أفضل منه ، والحب الذى يورث بعد الحياء وهو يؤول إلى الشوق أفضل من الأول .

الأعداء الثلاثة :

وقال : أعدى الأعداء نفسك ، فاحذر منها ، وولدك هو قرة عينك هو شريكها فى العداوة ، وزوجتك التى هى مهنى نفسك قرينتهما فى العداوة ، فاتق الله لا تتابعهم فيما يجرونك إليه يريدون (أن يدخلوك) فيما نهاك الله عنه ، وتتابعهم ، فتهلك دينك ، علمت ذلك أو جهلته (١) .

المبتدىء فى الطريق :

وقال أول ما يؤمر به المبتدىء للتوبة والندامة والتحول من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة فى الكتاب والسنة ، ولا تصح له التوبة إلا بالأكل الحلال ولا يصح له أكل الحلال إلا بأداء حقوق الله تعالى ، ولا يصح له شىء مما وصفنا حتى يستعين بالله عزوجل على هذا .

قيل له : يا أبا محمد كيف يصل العبد إلى هذا ؟ قال : بخمسة أشياء : يزهد فى طعام يصير إلى الكنيف ، ولباس يصير إلى المزبل وبناء يصير إلى الخراب ، ومال يصير إلى الميراث ، وأحباء يصيرون أو يصير هو إلى التراب . ٢١٨ ب

وقال سهل : الخلق طبعوا على أربع طبائع : فأول الطبع طبع البهائم وهو البطن والفرج ، والثانى طبع الشياطين ، وهو اللهو واللعب ، والثالث طبع السحرة ، وهو المكر والخديعة والكذب والرابع طبع الأبالسة ، وهو الإباء والاستكبار . فالعصمة والسلامة

---

(١) هذا مطابق للآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » سورة التغابن ، الآية ١٤ .

من أول طبع بالإيمان ، والسلامة من الثانى بالتسبيح والتقديس ، والثالث بالصدق والنصيحة والتفضيل والوابع بالتضرع والصراخ
٢١٨ ب أى البكاء والدعاء والتضرع إلى الله عز وجل فى [طلب السلامة والعصمة والتوفيق .(١)

الدعاء :

وقال : لتشهدوا على أن من دينى أنى لا أتبرأ من فساق أمة محمد ﷺ : فاجرهم وقاتلهم وزانيهم وسارقهم ، وأتبرأ ممن يدعى التوكل والرضا والحب والشوق . وأنا أسأل الله تعالى ألا يخرجنا من الدنيا حتى نحقق إيماننا بالقدر واليقين والرضا والتوكل والحب ، إلا أن يكون من طريق حق ، والا نغتاب ولا نكذب .

قال عبد الرحمن : البراءة بدعة ، وما عتاب مثل هذا على
٢١٩ أ أبى محمد ولكن يحمل على التشديد والتغليظ من جهة الغيرة ولتركهم الصدق فى طريق الحق .

الخروج على الإمام :

وقال سهل : من قتل تحت سيف إمام عادل فهو فى النار .

قال عبد الرحمن : يريد قتله الإمام فى الخروج عليه . وكل من خالف إماماً جائراً فى ترك الصلاة خلفه والحج معه والغزو معه فاحتج عليه الإمام فناصبه فقتاه ، فهو فى النار(٢) .

---

(١) قارن الحلية / ١٠ / ٢٠٧ .

(٢) شرح الصقلى هنا يتجاهل القيد الذى وضعه التسترى بالنسبة للإمام حيث وصفه بالعدالة وفى هذه الحالة يعتبر الخارج عليه خارجاً على الحق والعدل ومن ثم حق عليه عذاب النار : إن الصقلى يرى الخروج على الإمام — حتى وإن كان ظالماً ، موجباً لعقوبة النار ، لكنه بما نرى حدد جوانب الخروج وجهات المخالفة . وهى — كما ذكرها — ترك الصلاة خلفه والحج والغزو معه ، أى محاربة الأعداء . والواقع أن جمهور الفقهاء لم يبيحوا الخروج على الإمام مهما كان ظالماً إذا اقتضى الخروج بلبلة أو اضطراباً خطيراً فى الأمن وسلامة المجتمع ، =

قال عبد الرحمن : وفى هؤلاء جمعاً . ومن دخل منهم النار لم يخلد فيها . فهذا هو مذهب أبي محمد ، وقول أهل السنة .

القــرآن :

وقال سهل : من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن علم الله مخلوق ، ومن قال ذلك فهو كافر ، لأن القرآن من علم الله تعالى ، وليس هو كل علمه ، لقوله : « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » (١) وقال : بالله عز وجل عرف النبى ﷺ وأطيع الله بالرسول ، فالظاهر إمام للباطن ، وتصديق الظاهر بالباطن . وقال ٢١٩ ب إيمان بالله والكتاب والسنة هو العلم كله . وأول الجهل ترك الإقرار بالتوحيد ، وترك التمسك بالسنة معناه أن الإقرار بالتوحيد هو الإيمان ، والاقتداء بالسنة هو النجاة ، وضده كفر وبدعة .

الرؤية :

وقال سهل فى معنى الحديث : إن شككتم فى شيء فلا تشكوا فإن ربكم ليس بأعور حجة للمعاينة ، يريد إثبات الصفات لله عز وجل لحديث النبى ﷺ فى المسيح الدجال (٢) :

= أما إذا استفحل ظلم الإمام وسخريته بالقانون والحقوق وأمكن الخروج عليه وعزله دون تضحية بسلامة وأمن المواطنين ، فلم يمنع الفقهاء ذلك . والمعول عليه في هذا الصدد هو وحدة المسلمين وسلامتهم وأمنهم . كما ينبغي أن يفرق به أوجه الظلم الذى يقع من الإمام من حيث الدرجة والعموم .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .

(٢) الحديث المشهور المتعلق برؤية الله هو « إنكم سترون ربكم كما ترون البدر ليلة تمه لا تضامون في رؤيته » . أما حديث النبي صلى الله عليه وسلم الخاص بالمسيح الدجال فحوله مقال كثير .

التوبة :

وقال : التوبة من المعاصي فرض ، كما فرضت التوبة من الكفر ولا تقبل إلا قبل المعاينة ، وحب الصحابة فرض .

القدر والكرامات :

وقال : أقرب الخلق إلى الله عز وجل المؤمنون بالقدر .

قال عبد الرحمن : أفضل الناس أهل السنة ، وأفضل أهل السنة المؤمنون بالقدرة للأولياء ، وهم المصدقون بالكرامات وانقلاب الأعيان (١) .

الإخلاص لله :

وقال سهل : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : أنزلني من نفسك كهمك ، أي الأقدار ، وهي المعرفة ، واجعلني ذخراً لمعادك ، العلم وقبول الوحي .

قال عبد الرحمن : المعروف أن الله عز وجل أوحى إلى عيسى ٢٢٠ أ عليه السلام : « أنزلني من نفسك كهمك » أي هو إيثار حق الله عز وجل إذا وجب ، قبل حق نفسك ، « واجعلني ذخراً لمعادك » أي عدة لك بإيثار ما لي عندك من حقي الواجب عليك ، « ولا تول غيري فأخذلك » أي لا تثق بمخلوق دوني فأسلمك إليه(٢) .

---

(١) يبدو هنا أن الصقلي يورد فكرة أخرى إلى جانب الفكرة التي قدمها سهل ، فسهل يذكر أن أقرب الخلق إلى الله هم الذين يسلمون بمبدأ القدر الذي يجريه الله على عباده وهذا مرتبط بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاص بالإيمان بالقدر خيره وشره . أما الصقلي فيصنف أهل السنة – وهم لاشك مؤمنون جميعاً – ويجعل من وسع إيمانهم التسليم بقدرة الأولياء على إبداء الكرامات وقلب الأعيان باعتبارهما منحة إلهية تفضل الله بها على هؤلاء .

(٢) سواء نسب هذا القول لداود أو لعيسى عليهما السلام فهو من الإسرائيليات إلا أنه يوافق الحقائق الإسلامية .

وقال سهل : أصل الحلال العلم أى المعرفة بأصل الشىء وفرعه قول النبى ﷺ : « ثلث طعام وثلث شراب وثلث ريح » [هواء].

وقال : قالت قريش للنبى ﷺ : تقطع رحمك . قال لهم : « أنتم الذين قطعتم الرحم » أى لم يقروا بالوحدانية والكتاب والسنة .

خلوص الوحدانية :

وقال : تخلص الوحدانية من أربعة : من الزندقة والكفر والشرك والنفاق ، وتخلص الفروع – يعنى النافلة – من أربعة : البدعة والوعيد والرياء والموازنة (١) يعنى بالموازنة رؤية المجازاة بالأعمال ، لأنهم إنما دخلوا الجنة بالرحمة .

مخافة الله :

وقال سهل : لو أن الله عز وجل من على أهل السموات وأهل الأرضين بمثقال ذرة من الخوف – بعد صحة الإيمان – لم يعصوه طرفة عين .

فضل الإيمان :

وقال : أهل الورع تطوى لهم الأرض(٢) وأهل البدع . قيل له : ٢٢٠ ب فما الفرق بينهما ؟ قال : الإيمان عليه نور ، والشيطان يهرب من

---

(١) قد تستعمل الموازنة فى سياق آخر ، مراد بها وزن الأعمال على الكتاب والسنة وقبول ما طابقهما نصاً وروحاً . أما المعنى المراد هنا فيتصل بانتظار الإنسان للجزاء على أعماله ، وهذا يورث اعتقاد أن الإنسان إنما يحصل على رضا الله وعلى نعيم الجنة بفضل جهده وبفضل أعماله مما قد يؤدى إلى إنكار فضل الله أو المبالغة فى تصميم واستعظام الأعمال مما يحبطها ويبطل أثرها .

(٢) لعل هنا سقطاً تقديره «أوأهل الورع وأهل البدع » حتى يظهر الفرق بين الطرفين فالطرف الأول يمثل الإيمان بنوره الواضح ، والطرف الثانى وهم أهل البدع : إشارة إلى حزب الشيطان وجنده ما يحيط بهما من ظلام و غموض وحيرة واضطراب .

النور ، والنور هو : الكتاب والسنة والاقتداء ، فإذا خالف ذلك ذهب نور الإيمان ، وجاء الشيطان .

آفة الكسب :

وقال : فى آخر الزمان لا يتوبون، لأن الآفة من قبل الخبز (١). فصارت عقوبة — أى فى قلوبهم — لعدم تحريهم الحلال .

الإيمان :

وقال : الإيمان بالله هو التوحيد ، والإيمان لله الإيمان بالرسل وما جاءوا به من عند الله. قيل له: ما السنة؟ قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، عدل لا يجور ، ولا يشبهه شيء . محمد رسول الله ﷺ ، وكل ما جاء به من عندالله يعنى بقوله عز وجل : « سنة الله التى قد خلت »(٢) أى دين الله الذى قام به الكتاب والسنة .

تبادل العلاقة بين الفكر والعقيدة والعمل :

وقال سهل : الأشياء كلها مجتمعة فى المعرفة غير مجتمعة فى العقل، والمعرفة كلها مجتمعة فى العلم غير مجتمعة فى العمل، والعمل كله مجتمع فى العلم غير مجتمع فى السنة ، والعلم كله مجتمع فى السنة غير مجتمع فى العمل ، والسنة كلها مجتمعة فى العمل غير مجتمعة فى الإخلاص ، والإخلاص كله مجتمع فى العمل غير مجتمع فى الختم ، أى خواتم الأمور (٣) .

---

(١) العبارة « من قبل الخبز » إشارة إلى أن أكثر المعاصى إنما يرد من عدم تحرى اللقمة الحلال ، وذلك لأن كل إنسان يلتمس العذر لنفسه دائماً فيما يقترف من آثام فإنه يسعى للقمة العيش أو الخبز . وفى ذلك يكمن داء الإنسان كما يرى القشترى .

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٣ .

(٣) ذلك مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالخواتيم »

أساس رذيلة الغيبة وحدودها :

وقال سهل : من أراد أن يسلم من الغيبة فليسد عن نفسه باب الظنون ، أى الظن السوء ، فمن سلم من الظن سلم من التجسس ، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة ، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور ، ومن سلم من الزور سلم من البهتان .

وقال : ليس للفاسق غيبة فيما يفتخر به من الفسق ، وله غيبة فيما يكتمه من المعاصى ، وكذلك المبتدع ، وله غيبة فى سائر أعماله إذا استحيا منها ولم يفتخر بها . وكذلك السلطان الجائر ليس له غيبة فليس للفاسق غيبة(١) لأن ذلك يكتم نفاقه وهذا يفتخر به بفسقه ،

قيل له : فمن الفاسق المعلن ؟ قال : المخنث .

قال أبو القاسم : ويجوز أن يكون غيره معه من أهل الفجور الذين يفتخرون بفسقهم ويظهرون ما ستر الله عليهم ، فيحذر الناس منهم ، نصيحة لهم .

الدعوى :

وقال : اعلموا أن فى آخر الزمان لا تثبت الحسنات . قيل : ولم ذلك يا أبا محمد ؟ قال : لأنه يكثر فيهم الدعوى فى المقامات ويحبون الرياسة فيكون كلامهم فيما بينهم الطعن والغيبة فى الصالحين فتذهب حسناتهم .

---

(١) لعل هنا عبارة محذوفة وهى « وللمنافق غيبة » لأنه يكتم نفاقه ولا يجهر به وليس لأحد أن يقطع بنيته أو يحكم عليه حكماً حاسماً . اللهم إلا إذا جهر بباطله وعندئذ لا يكون منافقاً ، بل مجاهراً . والنقطة الهامة التى يركز عليها التسترى هى عادة الجهر والتفاخر بالمعصية لأن ذلك أخطر ما يمكن أن يصيب أفراد المجتمع من الانهيار والفساد الخلقى ، يجعل الجهر بالمعصية سبيلا إلى المحاكاة والاقتداء ، ومعنى ذلك أن يقال إن المجتمع لا يفقد الأمل طالما كان لدى أفراده إحساس بالاستنكار والحياء من المعصية أو الرذيلة .

الرياء :

٢٢١ ب وقال سهل : الرياء اثنان وسبعون باباً ، أوله الشح وبخل النفس أن يكون العمل لله عز وجل . وأنا أقول : إن أول الرياء السخاء بالحلال من غير نية ، أو بالنية لغير الله تعالى .

العلم والعمل :

وقال سهل : شكر العلم العمل به ، وشكر العمل مزيد من العلم ، فهذا فى مزيد من علمه وحاله ، حتى يدخل الجنة ، ويوصل عمله بمزيد نعيم الجنة .

وقال أيضاً : شكر العلم التعليم ، وشكر العمل مزيد من المعرفة وشكر النار أن تنتقم لله ممن عصاه (١) .

٢٢١ ب وشكر الجنة أن تتزين لمن أطاع الله عز وجل . وأصل الشكر إعلام حالنا ، وهو التوبة ، وبه تمام الشكر .

الشباب :

وسئل عن قول عبد الله بن مسعود : « الشباب شعبة من الجنون » . فقال : الشباب إلى ثلاثين حدة (٢) ، فإذا بلغ الثلاثين

---

(١) هنا يبدو العمق فى فكر سهل حيث يرى لكل شىء فى الوجود غاية ورسالة ووظيفة محددة ، حتى ذلك الشىء الذى تنفر منه النفوس وتقشعر ، وسهل مع هذا يوضح أن لكل شىء اتجاهاً ولساناً يعبر به عن عبادته وخضوعه وشكره لله عز وجل ، كل حسب ما أودع فيه ، ومن الدقة أن ترى أن نار جهنم تؤدى عبادتها عن طريق إهلاكها لكل كافر فاسق .

(٢) تقرأ هذه الكلمة «حدة» بتشديد الدال بعد كسر الحاء ومعناه الشدة والتطرف فى الانفعال. ويجوز أن نقرأ بفتح الحاء وختم الكلمة بالهاء ضمير يعود على الشباب والمعنى أن الثلاثين سنة هى حد الشباب، لكن يضعف هذا أن سن الشباب قد يمتد إلى أكثر ، وذلك ما دام دون الأربعين . والتسترى يريد إبراز أهمية تشكيل السلوك فى هذه الفترة فإنه إن شكل على الاستقامة كانت الغاية غاية سعيدة وإلا كان الهلاك والخسران . لكن هذا لا يمنع حقيقة إمكان إصلاح الإنسان واستقامته بعد هذه السن ، فالإسلام لا يغلق باب التوبة ولا يعرض أمام الإنسان فرص الإصلاح والاستقامة .

سنة دخل فى المرة السوداء ، واجتمع دماغه ، وأشد ما يكون من المكر والخديعة عند ذلك ، فإن استقام وأتى على طاعة الله عز وجل إلى الستين سنة ، فتح له ما تعجب به الملائكة ، وان هوى خسر الدنيا والآخرة .

إبليس :

وقال سهل : لإبليس عند ولد آدم ثلاثة مقامات : فالأول يوسوس ، والثانى يأمر إذا علم أنه يقبل ، وهذا للصغار ، أما (١) للكبار فليس له إلا الطمع والانتظار يترصدهم عند غفلاتهم . ٢٢٢

الوسوسة :

وقال : لا يعرف وسوسة المنافقين إلا المؤمنون ولا يعرف وسوسة الجاهل إلا العالم ، ولا يعرف وسوسة الناسى إلا الذاكر ، ولا يعرف وسوسة العاصى إلا المطيع ، ولا يعرف وسوسة الدنيا إلا من يعمل للآخرة ، والوسوسة أول مقامات الإيمان ، وآخر مقامات الإيمان . فالأول العلم بالعدو(٢) . وقال : ليس للكافر والعاصى وسوسة إنما الوسوسة للمؤمنين والصديقين ، والوسوسة من العدو ، والاستماع من العبد ، وحديث النفس هو من العبد ، وهوظاهر ، ترى الرجل ليس معه أحد ، وهو كأنه يكلم إنساناً ، فذلك هو حديث النفس .

وقال : ثلاثة أشياء من العقل : علم يدل على العمل به — قال عبد الرحمن — (٣) ومعرفة تدل على الإخلاص ، ويقين يدل على الخوف والحذر .

---

(١) هذا للمقام الثالث الخاص بدوره مع الكبار .

(٢) هذا من باب قولهم « بضدها تتميز الأشياء » .

(٣) صدر العبارة يدل على أن التسترى يقصد إلى ثلاثة أشياء تتصل فعلا بالعقل ، وما ورد هنا هو العلم الذى يدل على العمل به ، ثم وردت عبارة —قال عبد الرحمن— معترضة . فلا ندرى أهذا إكمال عبد الرحمن الصقلى أم هو تتمة لما روى عن سهل حقيقة .

مر عاة الله فى كل حال :

٢٢٢ أ وقال سهل رحمه الله : افترض الله على المؤمنين أن يكون أكلهم
٢٢٣ ب ونومهم ولباسهم له فكيف غيره ؟ يريد أن الفرض فيه أخذه من وجهه ، والعمل فيه بنية الصدق لله عز وجل .

حسن القصد فى إظهار الطاعة :

وقال سهل : من هذه الأمة أقوام ، لولا أن الله تبارك وتعالى افترض عليهم أشياء لا يظهرونها ، لابد لهم من إظهارها لما أظهروها حتى يفارقوا الدنيا ، ولكن يلزمهم الفرض فيظهرونه له ، لا لهم يريد ما يظهر من الفرض والنوافل للقدوة والأسوة ، وكذلك الدعوة للناس إذا لزمت الولى ، وكذلك الفتيا للعالم إذا سئل عما يعلم ، وهو أصل ترك التكلف ، لولا ما أخذ عليهم ما أظهروا من حالهم للخلق شيئاً .

المتشابه :

وقال : أحكام الآخرة أكثرها متشابه ، ولا يستقر الإيمان — أى فى الدنيا — بها إلا فى قلب مؤمن كامل الإيمان . وأول نفاق العبد الشكوك فى أحكام القيامة والاضطراب فيها ، وليس فى الأحكام شبهة ولكن فى الفعال ، ولا يخرج أحد من المتشابه حتى تصحبه ثلاثة أشياء : علم يحفظ به ، وقدرة (١) تقهره ، ورحمة تسعه .

الكسب ومشروعيته :

وسئل عن الكسب وما يدخل على الرجل من غيره ، فقال : لا ينبغى لأحد أن يدخل بتأويل حتى يحكم فيه سبعة أشياء : المعرفة والإقرار والعلم واليقين والتميز بين المتشابه والمحكم ، ويسلم الحكم

(١) يحتمل قراءة « قدوة » تقهره أى تلزمه بالاتباع .

إلى الحاكم ، يعنى أن هذه السبعة على المكسب من صنعة أو تجارة(١) ولم يقل هنا فى الذى يدخل عليه(٢) الشيء .

قال عبد الرحمن : ينبغى للذى يدخل عليه الشيء أن ينظر لأى شيء يعطى (٣) ، فإن كان من أجل الدين فإنه لا يحل له أخذه إلا عند الضرورة ، وإن كان الذى أعطاه يغمض(٤) فى كسبه فلا يأخذه إلا عند الفاقة ، إذا كان ممن يحل له أخذه ، هذا فرض على الضعفاء . وإن كان من الأقوياء ، فهم يطالبون بالشرف والتطلع والإيثار بالفضل ، وإلا كان بالانصاف ، وهو أخذ القوام من كل شيء .

الشكوى لا تكون إلا لله:

٢٢٣ أ وقال سهل: ما من عبد شكا إلى أحد من الخلق إلا كان عقل الشاكى أصغر من عقل المشتكى إليه ، ومن اتسع علمه لم يشك إلى أحد من الخلق ، ولم يجتمع إليهم ، أى فى حفظ نفسه ، وإقامة العذر عند النـــاس فى عام مراده ، ولم يشتغل بهم عن مولاه ، أى يحجبونه عنه (٥) .

إما للطمع فيما فى أيديهم ، أو لمنزلة يطلبها عندهم ، ووسعهم(٦)

---

(١) يضع التسترى هنا قانوناً وشروطاً صارمة ينبغى أن تتوافر إذا أريد اللجوء إلى التأويل وهى السبعة التى أشار إليها التسترى على النحو الذى ذكره . المعرفة والإقرار والعلم واليقين والتمييز بين المحكم والمتشابه ، وتسليم الحكم فى النهاية إلى الحاكم . والمقصود طبعاً التأويل لتناول هذا الكسب أو ذاك .

(٢) يبدو أن هذه العبارة لعبد الرحمن الصقلى أى أن الصقلى يرى أن التسترى لم يتناول مسألة ما إذا أتى إلى الإنسان شيء ودخل عليه ولم يسع هو وراءه . وقد تولى عبد الرحمن تناول هذه القضية فيما تبع ذلك .

(٣) بصيغة المبنى للمجهول .

(٤) يغمض فى كسبه أى لا يتحرى الدقة فى تناول الحلال ولذلك يشوب كسبه الحرام والمظلمة . ومنه قوله تعالى « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » .

(٥) تأمل هذه الحكمة الدقيقة التى تنم عن طول تجربة وخبرة .

(٦) « ويسعهم» أولى .

٢٢٣ ب يعلمه ، فكانوا له (١) لا عليه ، ومن لم يدار ويواس ويكافىء فهو كل على الناس ، عيال على الخلق ، ومن كانت عنده هذه الثلاث فالخلق كلهم عليه وهم عياله .

المحاسبة والموازنة :

وسئل : متى يعرف العبد ذنوبه ؟ قال : إذا حفظ أبواب قلبه. قال أبو القاسم يريد حفظ جوارحه الخمس . قيل له : فما المحاسبة والموازنة ؟ قال : المحاسبة إذا وقع فى سرك شىء لا تظهره حتى تعلم ما هو ، فإن كان حقاً أنفذته ، وإن كان باطلا أو وسوسة أو ما لا يحتمله عقل الصاحب أوقعت العلم لأهله، ورددت الجهل على العدو والنفس . وأبواب قلبه التى ينبغى له حفظها : السمع والبصر والفم والفرج واليدين والرجلين .

الموازنة :

وقال سهل : والموازنة أن يميز بين الفرض والسنة والنوافل . فإذا أراد العبد أن يفعل شيئاً من الأمر والنهى أو غير ذلك أمره العقل بالاقتداء ، وهذا مدخ العقل .

قال عبد الرحمن : معنى قول أبى محمد أن يزن بالمحاسبة من الفرض والسنة بالعلم والمعرفة وحضور العقل ، فأيهما وجد أرجح ٢٢٤ أ فهو واجب ، وأيهما وجب فهو أرجح ، فيؤثره على ما سواه .

أصول الأشياء :

وقال سهل : أصول الأشياء أربعة : من نور العزة ونار العزة وروح العزة وطين العزة(٢) .

---

(٣) فيكونون له « أو لى » .

(٤) يذكر التسترى الأصول التى خلق منها على الترتيب كل من الملائكة والجن والإنسان والحيوان بصورة عامة ونسب هـذه الأصول كلها إلى العزة الإلهية تمييزاً لها عما قد يشاركها فى الاسم أو الصفة ، ليشير بذلك إلى أن هذه الأصول مهما سر الله أو أفيض عليها من أسرار القدرة ما جعلها مصدراً لحياة هذه الأجناس المختلفة .

قال عبدالرحمن : معنى نور العزة — كما يقول — أرض الله وسماء الله وجبال الله وبحار الله ، والأشياء كلها منسوبة إلى خالقها ، وهو باين عنها ، وعلمه وقدرته يحيط بها .

٢٢٤ أ ومن نور العزة خلقت الملائكة ، ومن نار العزة خلقت الجن ، وخلقت جثة آدم من طين العزة ، وخلقت الأرواح كلها من روح العزة .

القول والعمل :

وقال سهل : ليس هذا زمان قل(١) . إنما هذا زمان العبادة ، يريد أن الناس قد فرغوا من قيل ، فكلما وقع وجد فيه قيل ، ثم تركوا علينا العمل بما جاء عندهم من كتاب أو سنة أو إجماع ، أو آداب أو أخلاق ، أو سيئة أو حسنة . قيل لسهل : فمتى يلزمنا الجواب للسائل قل أم كثر؟(٢) اختلف العلماء فيه، فإذا علمت أنك تريد أن ترفع عنه موضع العدو فافعل بعد العلم . يريد أن جميع ما عصى الله فيه هو من سبيل العدو ، فعليك بالنصح لأخيك لكى تستنقذه من حبائل عدوه ، ولا يكون ذلك إلا بعد العلم بما يأمر

٢٢٤ ب وينهى . والمعرفة بمعانى الرفق فيمن يأمره أو ينهاه(٣) .

الإسلام والإيمان والإحسان :

وقيل لسهل : هل للفرد من خلق يتخلق به ؟ فقال ثلاثة : الإقرار بالإسلام ، وهو الاستسلام للرب جل(٤) وعز ، والقبول من النبى ﷺ ، وهو الإيمان واليقين بالثواب والعقاب ، والثالث

(١) لعل المراد هنا ليس هذا زمان «قيل وقال» أى ليس هذا زمان الاقتصار على القول والنظر دون الاهتمام بالعمل . ويحتمل أن تكون اللفظة كما أثبتت بصيغة الأمر .

(٢) لعل ها هنا سقطاً تقديره «قال (اختلف) العلماء فيه .

(٣) فى هذا توجيه سديد وتصحيح لرسالة العلماء التى يجب أن تؤدى فى رفق ورحمة ورعاية .

(٤) هذا تفسير خاص للإسلام يركز فيه على الباطن ، ويسوى فيه بينه وبين الإيمان .

حسن العبادة وهو الإحسان : يعنى بالإحسان المراقبة لله عز وجل بالطاعة . وذلك قوله : « فما الإحسان » قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك » (١) .

آداب سبعة :

وقال سهل : لابد لنا من سبعة أشياء : الاستخارة والاستشارة والاستعانة والاستغفار والشكر والتوبة والشكوى من أنفسنا إليه . يعنى طرح الكنف بين يديه بالدعاء والتضرع وترك الحول والقوة منا إليه ، ورجوعنا بترك الاعتراض عليه فى كل حال أورده علينا أو ورد منا علنه .

فساد العصر :

٢٢٤ ب وقال سهل اعلموا أن هذا الزمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بالجوع والصبر والجهد ، لفساد ما عليه أهل هذا الزمان ولا يجدون اليوم ٢٢٥ أ عالماً يعمل بعلمه إلا من شاء الله ، وكل ما كان أسوأ حالا . قيل : وكيف ذلك . ولم صار هذا هكذا ؟ قال : لأنهم صيروا الدنيا مأكلة ، وتركوا الأمر الأول هدم الدنيا ، والإقبال على الآخرة ، يعنى : أنهم ورثوا من ذلك عمى القلوب وانطماس الفهوم ، فلم ينتفعوا بأنفسهم ، ولم ينتفع بهم نافع لهم .

تنبؤات :

وقال : ثلاثة تظهر فى آخر الزمان . قلما يعرفون الأمر والنهى ومن عرفه لا يعمل(٢) به ولا يصبر عليه فيصيرون مثل الكلاب

---

(١) الحديث المأثور فيه سأل جبريل الرسول عن الإسلام والإيمان والإحسان .. أخرجه الشيخان فى أول كتاب الإيمان من صحيح مسلم وفى كتاب الإيمان قال ابن الأثير فى جامع الأصول إن الحديث رواه مسلم والنعمانى والترمذى وأبو داود .

(٢) هذا من التنبؤات المبنية على نوع من الاستنباط الذى يتخذ بعض الشواهد عوناً عليه . وهذا التنبؤ يدلنا على توجس الصوفية الخلص خيفة من بعض تصرفات ومواقف وأقوال المدعين فى الطريق إلى الله .

على الدنيا ، ويدعون المقامات والعبادات والنوافل .

توقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وقال سهل : إذا ظهرت هذه الثلاث فإياكم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : إذا جار السلطان على الرعية ، وأخذت الرشوة أى فى الحكم ، وتابع العلماء السلطان ، وصاروا يفتخرون بمجالسته وإذا تاب العاصى المذنب يردونه إلى المعصية . يعنى أنه إذا تاب وزهد فى الدنيا ، رغبوه فيها حتى يردوه إلى طلبها ، فيكسبها بغير حقها ، فقد عظمت بلية الناس، ورفع المعروف وعم المنكر . فإذا كان ذلك فاشتر نفسك ودينك بمالك ، فإن لم يكن فاشتر دينك بنفسك ومالك ، فان ذهاب النفس والمال أيسر مع السلامة

٢٢٥ ب للدين(١) كفرارك من الأسد .

البلاء والابتلاء :

وقال : كل غم وكرب ورد على أمة محمد ﷺ من قبل الآخرة أى فهم يزدادون بذلك عقلا وعلماً وفهماً وبصراً فى الدين ، وكل ما ورد عليه من قبل الدنيا أى فهم يزدادون بذلك جهلا وذهاب عقل ونقصاناً فى دينهم ، يريد إذا تابعوه فإن سالموه سلموا .

تفسير الأحلام :

وقال سهل : لا تعبروا الرؤيا(٢) على حال الرجل وزمانه

---

(١) هنا سقط ولعل التقدير « وفر منهم كفرارك من الأسد » . وفى هذا النص ما يدل على أنه إذا لم يكن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مؤدياً للغرض المنشود ، فوجوده كعدمه . وربما كانت مزاولته عن عموم الفساد تعميماً للأذى حتى يشمل الآمرين أنفسهم .

(٢) المعروف أن سهلا لا يرى تأويل الرؤيا على هذى الكتب المؤلفة فى تفسير الأحلام وإنما يرى تأويلها على حال الرجل النفسية بدليل قوله : إن مثل الرؤيا مثل وساوس النفس ووساوس الناس مختلفة لذا وجب هنا أن تصلح العبارة إلى « لا تعبروا الرؤيا على الكتاب وإنما على . . يدل ورود هذا النص فى سياق آخر .

ومثل الرؤيا مثل الوسواس ، ووساس الناس مختلفة ، يعنى أنه ما حدثته نفسه من طريق الوسوسة رآه فى منامه .

الخاطر الأول وموقف الإنسان ومسئوليته :

٢٢٥ ب وقال: الخاطر لا يملكه العبد ، ويملك الأفكار ، والهمة أول فعل العبد بها وجد الشيطان سبيله فى الوسوسة ، والنفس أعظم مكرا. فإذا خرج إلى الجوارتزينت الدنيا له ، واجتمعت وسوسة الشيطان ومكر النفس حتى يتم الشيء . وليس على العبد أن يخرج ما وقع من الخواطر فى قلبه ، لأنه لا يملكه ، ولكن فرض عليه أن يعلم

٢٢٦ أ ما وقع فيعرضه على العلم والاقتداء. فإذا لم يوافق لم يخرج إلى الجوارح ، وهذا من شهداء البحر . فإذا ظهرفى الجوارح ولم ينفذه فهو من شهداءالبر أهل القلوب، وجل شهداء البر أهل الجوارح .

المعاصى والطاعات :

وقال سهل : تربة المعاصى الأمل ، وبذرها الحرص ، وماؤها الجهل ، وصاحبها الشقى المصر . وتربة الطاعة المعرفة ، وبذرها اليقين ، وماؤها العلم ، وصاحبها المفوض .

تسلسل الاكتساب :

وقال سهل : اكتساب الإسلام الإنصاف ، وهو أن تريد للمسلم ما ترضاه لنفسك ،واكتساب الإيمان كف الأذى والنصيحة والحد والاجتهاد فى الأمر والنهى . واكتساب العقل : التجمل والرفق ، واكتساب العلم الحلم والتواضع ، واكتساب المعرفة السكينة والوقار . قال عبد الرحمن : واكتساب العمل الخشية ، واكتساب المعرفة الحذر والتيقظ ، واكتساب اليقين الخوف والثقة ، واكتساب الصبر الرضا والتسليم ، واكتساب الشكر الإيثار والافتقار ، واكتساب حسن الظن الرجاء والتوكل ، واكتساب الورع الزهد ، واكتساب الزهد الأنس ، واكتساب الأنس المحبة ، واكتساب المحبة الحيلة

واكتساب الحياء المراقبة، واكتساب المراقبة رؤية الإجلال والتعظيم لمقام الله عز وجل عليه فى الخواطر فى كل حال ، أى ترضى بحاله التى هو فيها لايريد الزيادة من ربه . قال أبوالقاسم ، وهذا لأهل البداية ، وأما أهل النهاية فهم مع الله عز وجل فى حالة الموافقة لا يحبون تعجيل ما أخره ، ولا تأخير ما عجله .

السعادة وسبيل تحقيقها :

وقال سهل : أربعة من السعادة : القنوع بقلة الشىء والصبر على الأمراض والاستقصاء فى الورع وحسن الظن بالله عزوجل ، أى حسن الظن فيما بينه وبين ربه رزقه ، وفيما بينه وبين معاشرة غيره ، حتى يظهر له منه ما يكره .

قال عبد الرحمن : وأربعة من الشقاء : الرغبة والجزع فى المصائب ، والإغماض(١) فى الكسب ، والثقة بما فى اليد .

وأربعة من الحرمان : الرضا بالجهل والوقوف مع الحال والدعوى فى المقامات والحياء فى التعليم .

الفطرة والاقتداء :

٢٢٧ أ وقال سهل : من لم يكن لحركاته وسكونه إمام فى الظاهر يقتدى به ويرجع إلى باطنه قطع به ، وفعل الظاهر شكر الباطن ، والدنيا شكر الآخرة ، وأكمل حالات المؤمن الظاهر والباطن ، والباطن موضع الفطرة وهو ما وافق السنة، وما لم يوافق السنة فهو باطل ، ومعنى موضع الفطرة الخلقة التى فطروا عليها ، وهو الإقرار والتوحيد فى أخذ الميثاق عليهم(٢) .

---

(١) الإغماض الغبن والظلم بالنقص أوالزيادة، ومنه قوله تعالى«ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » .

(٢) إشارة إلى آية الميثاق (الأعراف ١٧١) وهى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى . . . » .
وفى هذا النص يظهر ضرورة الإمام والقدوة للتأسى به والاسترشاد .

مراتب الشرف وتحققه :

وقال سهل : أصل كل شرف فى الدنيا والآخرة الكلام ، يعنى الكلام بالخير ، وأصل الكلام الأفكار ، يعنى بالأفكار النية ، وأصل النية العلم ، يعنى بالعلم الاقتداء ، وأصل العلم الوحى ، يعنى من الله عز وجل إلى رسوله وهو الكتاب والسنة ، فمن كانت أعماله غير هذا فهو ميت (يريد بالجهل)(١) .

الذكر :

وسئل عن الذكر . فقال : التقوى فى السر ، والسنة فى العلانية ، وقلوبهم مشاهدة ، ما لم تمازج غير الله عز وجل .

قال عبد الرحمن : ما لم تمل لغير الله تعالى بقصدها وإخلاصها وصدقها فى أعمالها .

الخوف والإجابة :

٢٢٧ ب وقال سهل : لا تكون الإجابة إلا بقصر الأمل ، والخائف هو الذى يترك ما نهاه الله عز وجل عنه ، وخوف التعظيم هو من ميراث هذا الخوف .

مراتب الخوف :

٢٢٧ ب قال عبد الرحمن : خوف الإيثار يورث خوف الخشية ، وخوف الخشية يورث خوف الفوت ، وخوف الفوت يورث خوف التعظيم وهو خوف الملائكة والأنبياء وبعض الصديقين .

---

(١) هذه الفقرة تؤيد ضرورة عدم الاعتماد على الباطن وحده ، بل لابد من الاستناد إلى العلم والاقتداء بناء على الوحى الوارد للمعصوم الذى أيده الله بالمعجزات ، ومعنى ذلك أن الفيصل هو الكتاب والسنة .

عذاب القبر :

وقال سهل رحمه الله : أدنى غم عذاب القبر ، لو وضع على أهل السموات وأهل الأرض لماتوا .

شدة التكبر على المبتدع :

وقال سهل : من طمع فى أن صاحب بدعة يتوب فقد رد على النبي ﷺ .قال عبد الرحمن : يريد بالحديث : أبى الله أن يأذن لصاحب بدعة بتوبة . ومعنى ذلك: إذا تاب من بدعة ظاهرة وقع فى أخرى باطنة أو ظاهرة . والله أعلم .

وقال سهل : ذهبت البدع إنما هو كفر وإيمان .

قال عبد الرحمن : يعنى لشدة ما خرج إليه أهل البدع من الأنوار حتى أداهم إلى كفر النعم .

بركة الفاتحة:

وقال سهل : لو قرئت « الحمد لله » (١) على ميت فعاش

٢٢٨ أ ما كان بعجب ، لأن الحمد اسم لله عز وجل ، وكذلك جميع الحروف . قال عبد الرحمن : لا يصح هذا إلا بنية وصفاء طعمة وصدق إرادة ، فعند ذلك تقرب منه إجابة من دعاه وتمام ما دعا (٢) .

مفهوم الفقر المراد وحقيقته :

وقال سهل : الفقر أن يظهر فقره إلى الله عز وجل ، والفقر عز ، والفقر محمود ، والمسكنة غير محمودة .

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٢ .

(٢) استدراك جيد من الصقلى لئلا يفهم أن مجرد إلقاء هذه العبارة دون إخلاص وصفاء مطعم من حلال كفيل بالإجابة كما يظن ذلك أحياناً بعض الجهال وقول التسترى « الحمد اسم لله تعالى » فيه نظر .

قال عبد الرحمن : الفقر إلى الله كله محمود ، والفقر من الله كله مذموم ، والغنى بالله كله سعادة ، والاستغناء عن الله كله شقاء. فإذا صح الغنى للعبد تم فقره ، وإذا ثبت اسم الفقر للعبد تم غناه(١)

الصديقون :

٢٢٨ أ وقال : غير ألوان الصديقين العلم والورع والإخلاص . فالخوف أرضهم ، والرجاء بنيانهم ، والحب سقفهم . قال عبد الرحمن : والجوع طعامهم ، والأثرة لباسهم ، والأنس أوطانهم ، والذكر كلامهم ، والنصيحة حديثهم ، والإنصاف جنتهم ، والصدق نهمتهم وللشكر دأبهم ، والرضا راحتهم ، والشغل بالله مواظبتهم .

رؤية الله فى الجنة :

وقال سهل : فى الجنة أقوام ينظرون إلى الله تعالى بكرة وعشيا وقوم لا يحجبون عنه فى كل وقت متى أرادوا . وبقدر طاعتهم فى الدنيا ينظرون إلى الله بالتنعم · وكل إنسان ينظر بقدر عمله .

٢٢٨ ب وقال عبد الرحمن : الناس فى الدنيا والآخرة ينظرون إلى الله عز وجل بقدر طاعتهم . أما فى الدنيا فبقدر طهارة القلب ينظر الإيمان واليقين ، وأما فى الآخرة فكاشفة العيان على قدر اتصال شغلهم به فى الدنيا ، كذا اتصال نظرهم إليه فى الآخرة ، وإنما يقع تضعيف التنعم بالنظر ولذة استماع الكلام بدون اتصال النظر إلى الله عز وجل ، وهذا خلق الصديقين لا يناله بعد النبيين غيرهم .

---

(١) أوضح الصقلى مفهوم الفقر لدى سهل بما يصحح أفكار كثير من الدارسين والمتهجمين على التصوف بسبب ما ورد عن لسان الصوفية بشأن الفقر والتمدح به ، ومن الجلى أنهم لم يعنوا بالفقر المعنى المحسوس من « خلو اليد الفعلى وعجزها عن الامتلاك مع التطلع إليه » انظر كتابنا دراسات فلسفية وأخلاقية ٣٩٤ وما بعدها بشأن موقف الصوفية من هذا المصطلح الهام « الفقر » .

اختلاف الناس فى أداء العبادة :

وقال سهل رحمه الله : المتسابقون هم العارفون ، والمجتهدون هم السابقون . قال عبد الرحمن : والمقربون هم الموقوفون ، وأصحاب اليمين هم التائبون .

وقال سهل: الناس فى القيامة على ثلاثة مقامات : فرجل عبدالله بعلانيته فى الدنيا فهو آمن فى العلانية خائف فى سره ، ورجل عبـــد الله بسره وعلانيته فهو آمن فى السر والعلانية (١) . قال عبد الرحمن : والرابع ليست له عبادة فى سر ولا علانية فهو خائف السر والعلانية . وهذا هو الكافر . والأول لسهل هو المنافق . فاثنان ٢٢٩ أ قسمة النار واثنان قسمة الجنة .

المكابدة والتسهيل:

وقال سهل بحق أقول لكم : من لم يعرف المكابدة لم يعرف التسهيل (٢) .

٢٢٩ أ قال عبد الرحمن : هذا للمريدين خاصة ، وأما المرادون فقد وصلوا إلى التسهيل بأول قدم قصدوا إلى الله تعالى به ، وأول نفس أشاروا به إليه عز وحل .

العقل :

وقال سهل : العقل موضع الدماغ ، ويكون موضع العلم المخ.

---

(١) لم يذكر المقام الثالث ولعله عن عبدالله بسره فقط ، وكذلك لم يذكر حكمه . ولعله خائف فى العلن آمن فى السر . ويظهر من تعليق الصقلى أن الذى عبد بالعلن دون السر هو المنافق . وهو فى النار وكذلك من لم يعبد لا فى سر ولا فى علن . وأما المؤمن الكامل فهو الذى جمع بين الحسنيين فعبد الله سراً وعلانية ، على حين أن من اقتصر فى العبادة على السر مثل الملامتية وبما كان أقل مرتبة وأدنى منزلة من المؤمن الكامل .

(٢) من المعروف أنه « بضدها تتميز الأشياء » فلا يعرف قيمة التيسير والتسهيل إلا من عانى صنوف المشاق وألوان الكفاح وهذا حصيلة تجربة سهل التى تشهد لمعظم آرائه ونتائجه .

قال عبد الرحمن : هو مثل ضربه أبو محمد . ومجمع العلم النافع والعقل النافذ القلب :

السر والعلن :

وقال سهل : إنما فضل السر على العلانية ، لضعف يقين العبد وإذا كمل يقينه استوى عنده الخلا والملا . قال عبد الرحمن : أى فى الأعمال . وهم أهل القدوة وأئمة الناس(١) .

التوكل :

وقال سهل : يصح التوكل للسلطان فى سلطنته إذا طلب ذلك واستعمله ، وكذلك التاجر والصانع(٢) .

قال عبد الرحمن : يصح لهم هذا من طريق الإيمان فلا يصح التوكل فيه إلا بالتجريد . وهو قول سهل حين سئل عن التوكل فقال : الصفا الزلال الذى زلت عليه أقدام العلماء . قيل له فمن المتوكل؟ قال : الذى لا يرد ولا يدخر ولا يبيت فى موضع ليلتين. ٢٢٩ ب
وله قول آخر : المتوكل على الله بالحقيقة لا يأكل طعاماً غيره أحق به منه .

---

(١) فى بعض النصوص ما يفيد أنه قد يكون هناك سلوك أو تعبير من الإنسان فى سر لا يصلح للعلن أو فى خلوة ولا يصلح للملا ، وبخاصة إذا كان الذى صدر منه هذا مناط قدوة أو اتباع . ومنه قول ذى النون المصرى مخاطباً الله عز وجل « أدعوك فى الملا يا إلهى ، وأدعوك فى الخلا يا حبيبى » .

(٢) فى هذا النص ما يرد على مزاعم بعض الباحثين فى الشرق والغرب من أن التوكل فى النظام الصوفى موقف سلبى قد يتناقض مع الأخذ بالأسباب أو الامتلاك . وما عرضه الصقلى من تفسير لبعض أقوال سهل . ونرى أن عبارة الصقلى الأولى ينبغى أن تكون بالنفى على سبيل الاستثناء أى يصح التوكل لهؤلاء الممتلكين عن طريق الإيحاء أما التوكل ذاته فلا يصح فى زعم الصقلى إلا بالتجرد الكامل . وهذا الحكم فى الواقع لا يمثل حقيقة رأى التسترى ، وإن كان يشهد لبعض جوانبه .

قال عبد الرحمن : ونحن نقول : إن حقيقة التوكل على الله عز وجل فى خواتم الأعمال أن يتوفاه مولاه على الإسلام . وأما الرزق فهو مضمون مقسوم مفروغ منه ، لأن الأول غيب والثانى معلوم .

وقال سهل : أصل كل شىء الإيمان ، قال عبد الرحمن : يريد من أصول الأحوال ،وهو : الإيمان ثم العلم ثم الصدق ثم العمل ثم الإخلاص ثم الصبر ثم الشكر ثم المعرفة ثم اليقين . وهذه أصول أهل المقامات .

الشبع :

وقال سهل : من لم يشبع إلا من الطعام فهو أبداً جائع ، من منا شبعه المعرفة ؟ من منا شبعه العلم ؟ من منا شبعه الذكر؟ .

وسئل سهل : البكاء أفضل أم الكمد ؟ قال : الكمد . ومثله كمثل بيت له سطح وليس له ميزاب كلما جاء المطر شرب ، ولا يخرج منه حتى يفسد البيت ، كذلك الكمد يقتل صاحبه . ومثل الذى يبكى كمثل بيت له ميزاب يخرج الماء منه . قيل له : فما ميزاب الكمد ؟ قال : الموت . ويقال الشوق . وهو الموت . قال عبد الرحمن : بكاء التخليط أفضل من القسوة ، وبكاء الخشية ٢٣٠ أ

---

(١) يبرز التسترى رأيه فى علو همة السالك من حيث اعتماده على الزاد الروحى فى الخلوص إلى الله فى نصوص كثيرة ، وفى مناسبات عدة منها ما ورد عنه فى الطريق إلى مكة حيث طلب منه بعض أصحابه قوتاً ، ولم يزد التسترى على أن ردد اسم الله معلناً أنه القوت الحقيق كما سأله آخر : أى شىء القوت ؟ فقال : الذكر الدائم . فقال الرجل : لم أسألك عن هذا ، إنما سألتك عن قوام النفس ، فأجاب التسترى بأن الأشياء لا تقوم إلا بالله ، فقال الرجل: لم أعن هذا سألتك عما لابد منه، فقال يا فتى : لابد من الله . انظر : تفسير القرآن العظيم ١٥ ، ٢٣ وقارن الحلية ١٠ — ٢٠٨ ، قوت القلوب ٢ — ١٩ ، الاحياء ٤ — ٢٢٢ . ونجد فكرة كون الله قوتاً للنفس موجودة فى نظم صوفية كثيرة منها ما ورد عن بعض القديسين من أنه سمع صوتاً ينادى إنه — أى الله سبحانه — قوت الناضج . انظر كتابنا / التصوف طريقا وتجربة ومذهبا .

أفضل من بكاء التخليط ، والكمد ميزاب بكاء الخشية . وبقيت منزلة فى البكاء ، وهو بكاء الارتياح . وهو خاصة للمقربين . وأهله فيه ثلاثة مقامات : بكاء من الإجلال ، وبكاء من التعظيم ، وبكاء من المهابة ، وهو بكاء الملائكة والأنبياء وبعض الصديقين ، الدمعة منه ترحم بها الأمة ، فطوبى لمن وجده فى عمره مرة (١) .

التوكل واليقين .

وقال سهل : فرع اليقين التوكل ، قال عبد الرحمن : وأعلى باب فى التوكل الغنى بالله مع حلول البلاء والفاقة .

ترك الهوى :

قال سهل : أدنى مقامات أهل التعبد ترك الهوى . قال عبد الرحمن : وأدنى مقام فى العلم ترك اليقين .

الحركة :

وقال سهل : التحريك من الله فانظر تحريكك يرجع إلى الله أو لغيره . قال عبد الرحمن : يريد بدء أمرك خلق لله ، وهى الحركة فانظر إلى ما تعود الحركة إلى طاعة أو معصية ، فإن كانت طاعة وجب فيها الصبر والشكر ، وإن كانت معصية وجب فيها التوبة والهرب (٢) .

---

(١) يفرق العلماء بين البكاء والتباكى ، فالأول يصدر عن فيض التأثر طبيعياً لا تكلف فيه بينما يصدر التباكى عن الافتعال والاستثارة والتكلف وهناك رواية مشهورة عن الصديق أبى بكر - رضوان الله عليه - حينما مر بجماعة يبكون لتلاوة القرآن فقال : كذلك كنا حتى قست القلوب ، وورد فى الأثر « ما لم تبكوا فتباكوا » وهذا ما يسمى بالتواجد عند فقد الوجد كما هو معروف فى التصوف . وتأمل دقة التفصيل فى أنواع البكاء تدرك قوة ملاحظة الأسلاف وصدق تجاربهم فى التمرف على خفى ومتنوع المشاعر .

(٢) الحركة من أهم الموضوعات التى عالجها الفكر الإسلامى على اختلاف صادق ومن أجمع ما قيل فيها من الجانب الفلسفى .

الصديقون :

وقال سهل : منح الصديقون الفهوم ، فأيامهم وساعاتهم وأوقاتهم وأنفاسهم وخواطرهم – أى وهمهم – ألا يفوتهم مولاهم.

القلوب :

٢٣٠ ب وقال : هذه القلوب جوالة : إما أن تجول حول العرش ، وإما أن تجول فى الحش(١) .

قال عبد الرحمن : يريد قلوب العلماء العارفين ، لا من يجول قلبه فيما بين الخلق دون ربه عز وجل .

معرفة العدو :

وقال سهل : لا يعرف العدو إلا العلماء بالله والعارفون ، وما من عبد تبرأ من كل شيء سوى الله إلا كان على الله أن يقوم بأمره. يريد التبرى من أسباب الدنيا على الثقة بالله ، و[من التبرى] من الدعاوى فى العلم والعمل بالافتقار إلى الله عز وجل .

القدر :

وقال : أصل القدر ثلاثة : أن تعلم أنه عالم فى الأصل ، عادل فى الفرع ، لا يستغنى عنه بين ذلك طرفة عين(٢) .

محبة الإخوان :

وقال : محبة الإخوان تكون بكف الأذى والبذل . قال

---

(١) الحش والحشاش ما ينبت فى الأرض عفواً دون تعمل أو بذل مجهود .

(٢) أجمل تلخيص لركائز مشكلة القدر ، والوفاء بهذه المبادىء يضمن السداد والدقة فى تكوين وجهة النظر المتعلقة بهذه المشكلة انظر تفصيل وتفسير هذه المبادىء فى مبحث « القدر » الفصل الرابع عشر من كتابنا التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ص ٢٥٦ – ٢٨٦ .

عبد الرحمن : ونحن نقول : وقد يكون بالنصرة والمناصحة . وأما الموالاة فى الدنيا ففرضها كف الأذى وإيصال النفع بقدر الطاقة(١) .

العلم بالحال :

وقال سهل — رحمه الله — أفضل العلم علم الحال ، قال عبد الرحمن : أى الواجب فى الوقت ، وأفضل العمل حفظ الحال(٢) .

٢٣١ أ قال عبد الرحمن : أى تخليصه لله من الآفات .

الاستعانة بالله :

وقال سهل : على قدر فقرك إليه تستعين به ويتولاك . قال عبد الرحمن : وعلى قدر ثقتك بغيره يسلمك إليه .

الفساد فى آخر الزمن :

وقال سهل : يكون فى آخر الزمن موت كموت البهائم ، يعنى بالجهل ، ويجوز ألا يكون لهم هم بالآخرة ، وإنما هو البطن والفرج ، وسئل سهل عن المروءة ، فقال : لا يكون فى باطنك شىء يعيبه ظاهرك(٣) . قيل له : فما العافية ؟ قال العصمة مما يكره الله عز وجل ، والتوفيق لما يحب الله ، وإن كان فى الدنيا مغموساً فى البلاء .

(١) هذا هو الجانب الاجتماعى فى الآداب الصوفية .

(٢) العلم بطبيعة الوقت وما يتطلبه وما ينبغى قيل لكل فرد يدل على بصر ووعى يضمن للإنسان السلامة فى سيره وسعيه .

(٣) تعريف طريف للمروءة وكذلك للعافية . وهذا التعريف الأخير يدل دلالة قاطعة على مدى اهتمام التسترى بالوقاية من المعصية لتتم العافية التى تفوق المفهوم العادى المرتبط بالصحة البدنية .

الدعاء والعمل :

٢٣١ أ وسئل : الدعاء أفضل أم العمل ؟ قال : الدعاء ، لأن معه الفقر والفاقة(١) ، قال عبد الرحمن : الدعاء بعد العمل أفضل من الدعاء بعد العلم ، والدعاء بعد المعرفة أفضل من الدعاء بعد العمل ، والدعاء بعد اليقين أفضل من الدعاء بعد المعرفة ، وأفضل الدعاء دعاء أهل التوحيد على إفراد الربوبية .

هموم المؤمن :

وقال سهل : علم النوافل أفضل من عمل النوافل ، ولو أن رجلا بكى فى اليوم روايا وتصدق بكذا دراهم ، ثم تكلم فيما لا يعنيه لم يكن حكمه حكم الشاكرين ، يعنى حكم الشاكرين لله عز وجل بالحقيقة من جهـة المعرفة واليقين (٢) . وقال : المؤمن إذا

٢٣١ ب مشى فإنما ينظر فى قبره . قال عبد الرحمن : وإذا جلس فإنما همه الفكرة ، وفى التخلص غداً بين يدى الله عز وجل إذا خاطبه المطالبون به .

الزهد والأكل :

وقال سهل : ازهد فى الحلال(٣) ، واعمل فى اللقمة ، ثم انظر بعد.

وسئل عن الأكل بنية أيكون شهوة ؟ فقال : وأين النية ؟ قال

---

(١) لا يجب أن يفهم من ذلك أن التسترى يقلل من شأن العمل وإنما يريد التسترى أن الدعاء لخلوصه فى الغالب من الفخر أو التظاهر أيسر وأفضل فى النتيجة من العمل الذى كثيراً ما يدخله الرياء ونادراً ما يخلو من الإعجاب أو مما يفسده واستدراك الصقلى يدل على تفريقه بين العلم والمعرفة وقد عالجنا هذه المسألة فى كتابنا « التصوف . . . » ، وفى الجزء الأول من التراث الصوفى . ومقولة التسترى موجهة إلى هؤلاء الذين أكثروا من التباهى بأعمالهم فى مدينة تستر (بلده) .

(٢) الفكرة التى يريد أن يوضحها التسترى هى أنه لا تفلح الفضائل مع استصحاب بعض الرذائل ولابد من التخلى عن سائر العيوب قبل التحلى بكريم الخلال والتقدم بأنواع القربات وهذا من الناحية التربوية مبدأ سليم مثمر .

(٣) الواقع أن الزهد لا يتم حقيقة إلا فى الحلال إذا أريد للزهد أن يعد فضيلة أولى الهمة والعزم ، وأما الزهد فى الحرام فهو أمر واجب قطعاً .

قال عبد الرحمن : يريد أنه إذا كان من حلال بنية الطاعة والقوة عليها لم يكن شهوة ما لم يكن إسرافاً أو مخيلة .

وقال سهل : الدراهم فى الصناديق عليها الأقفال والرجال مفاتحها(ولا تكنز)إلا بذهاب الدين ، كأن القوم ليس لهم رب ، ولا لهم آخرة ولا حساب (١) .

الحسنات بين الكم والكيف :

وقال سهل : قلت حسناتهم من العدد وكثرت من الصفاء ، قال عبد الرحمن : يعنى بالصفاء طهارة القلب من الرياء والعجب .

اختلاف المستويات :

وقال سهل : ذنوب المقربين عبادة الأبرار ، قال عبد الرحمن : يريد التدبير فى الخبز لبعد الوقت . وقد جاء عن بعضهم : ذنوب المقربين حسنات أصحاب اليمين ، وهو معناه .

علامة المحبة والتقوى :

٣٢١ ب وقال سهل : من علامة حب الله حب الآخرة ، ومن علامة حبها بغض الدنيا ، ومن علامة بغضها ألا تأخذ منها إلا البلغة من ٢٣٢ أ الحلال . وقال : من علامة التقوى الإيثار بالحلال والتقوى لأولى الألباب . ونحن لا نسأل إلا الله ولا نرد إلا الله . والسكون إلى قوت يوم سكون إلى غير الله(٢) .

قال عبد الرحمن : معناه على تجريد التوكل ، وهو مذهب أبى محمد .

---

(١) ما بين القوسين بياض فى الأصل وهذه الفكرة مستنبطة من الآية القرآنية « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » التوبة / ٣٤

(٢) يقصد بالسكون هنا الاطمئنان وتمام الاعتماد ، لأنه اعتماد على القوت لا على المقيت وهذا أمر صعب لا يقوى عليه إلا الناضجون فى الحياة الروحية .

أدب الفقير :

وقال سهل : الفقير الذى لا يعلم الناس بجوعه ولا بشدته ولا بمرضه ، يعنى الفقير بالحقيقة .

وقال : لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ﷺ ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عقل إلا الصبر .

الفرض والنفل :

وقال سهل : حكم الفروض أن تظهر وحكم النوافل أن تخفى.
وقال : إن مما يسأل العبد عنه يوم القيامة أن يقول الله عز وجل: « ألم أخمل ذكرك » .

وقال غيره : هى ثلاثة أن يقول له : ألم أخلقك ذكراً ؟ ألم أسكنك الحضر؟ ألم أخمل ذكرك ؟ .

الحجب والانشغال عن الله :

وقال سهل : بحق أقول لكم لا تتباعدوا من الله إلا بالشغل بغير الله ، يريد الشغل بما نهى عنه هذا للعوام ، وأما الخواص فشغلهم بما أبيح لهم حجاب عن ربهم .

وسئل سهل : بأى شىء حجبت القلوب عن الله عز وجل ؟ فقال : بالدنيا والنفس والعدو . وإن الله عز وجل إذا كره عبداً فتح عليه الدنيا (١) .

التأليه المزيف :

وقال : إلهك دراهمك وصنمك امرأتك وذكرك أولادك(٢)

---

(١) يبدو التعميم هنا فى كلام التسترى : إذ قد تفتح الدنيا على إنسان يرعى فيها حق الله ويسخر نعمته فى مرضاته ، ومما يرجح هذا نصوص أخرى له .

(٢) يريد التسترى أن هذه الثلاثة إذا كانت موضع الهوى والرغبة الحادة انهمك الإنسان فى حبها كأنه يؤلهها . وهذا معنى قرآنى يستفاد من قوله عز وجل « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة . فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون» (الجاثية ٢٢) .

٢٣٢ ب قال عبد الرحمن : معناه على وجه التعريف والتقريب ، قال عبد الرحمن : أى ولا يشغلك ذلك ، ولا يحجبك ، فإنه زائل عنك ، وأنت راحل عنه .

الراحة فى معرفة الله :

وقال سهل : من عرف الله عز وجل ذهب عنه التعب والنصب أى بالدنيا . ومن أراد أن يعرف الله تعالى فليعامل الله بالصدق والإيثار(١) .

التمتع والتقشف :

وقال سهل : من شرب الماء البارد لم يشتق إلى الجنة .

قال عبد الرحمن : أى كاشتياق أهل العلم بالمعرفة ، وقال : من صبر ثلاثاً فلم ير نقصاناً فى عقله ولا روحه فإن مر إلى ثلاثين أو أكثر فلا يضره ، وهـــذا الخلق إذا جاءوا إنما يرون أنهم لا يشبعون إلا من الطعام ، ولا يروون إلا من الشراب .

علاج الوسوسة :

وسئل : بأى شىء تذهب الوسوسة ؟ قال بقصر الأمل إذا كنت قائماً فلا تحدث نفسك بالجلوس ، وإذا كنت جالساً فلا تحدث نفسك بالقيام (٢) .

٢٣٣ أ قال عبد الرحمن : وإذا دخلت منزلك فلا تحدث نفسك بالخروج منه ، وإذا خرجت فلا تحدث نفسك بالدخول فيه كيلا تدخل وعليك تبعة ، ولا تخرج وعليك طلبة .

---

(١) تجد مصداق ذلك فى قوله تعالى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد ٢٧) .

(٢) هذا داخل فى باب اسقاط التدبير الذى أفاض فيه التسترى وركز عليه من بعده كثيرون من بينهم ابن عطاء الله السكندرى ، حتى عنون كتابه بهذا المصطلح .

الله والدار الآخرة هم المؤمن :

وقال : كيف يكون حاله ؟ رجل يمضى عليه أربعون سنة لم يطلع الله على قلبه فيرى فيه هم غيره .

وقال : صلاح الخلق : برفض الدنيا ، والرضا بما قسم الله، والاشتغال بطلب الآخرة . قيل له : فمتى يكون الهم هماً واحدا ؟ قال : إذا لم يكن لك فى الدنيا حاجة .

قال عبد الرحمن : يعنى إلى غير الله تعالى .

وقال سهل : لو أن كافرا رقى على جبل ، فدعا الله بسبعين اسما مما حكم الله فيه بالإجابة ألا يرزقه الله لرزقه (١) .

٢٢٣ أ قال عبد الرحمن : لو أن مؤمنا دعا الله عز وجل بهذه الأربعين اسما — وهى الأسماء المروية عن الحسن — أربعين مرة أن يزيل الجبال لزالت .

أولياء الله قدوة :

وسئل عن أولياء الله عز وجل فقال : هم الذين يتبعون أمر الله وينتهون عما نهى الله عنه ، ويتبعون آثار رسول الله ﷺ . مكانهم مكان العلم والقدوة ، وحالاتهم التفويض والتسليم ، وحركاتهم لحوله وقوته . فقيل له : فالعالم بالله يكون له ذنب ؟ قال : دع العلماء ، انظر كيف حالك ، سل العلماء حتى يقولوا لك الحق .

علم العلماء وعملهم :

٢٣٣ ب وقال سهل: إياكم وعمل العلماء الظاهر وعليكم بعلم العلماء، ألا

(١) تعبير طريف لعله استوحى الحديث النبوى الذى يشير إلى أن الإنسان لو فر من رزقه لأدركه كما يدركه الموت .

نص الحديث : «إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله .» رواه الطبرانى وابن عدى عن ابى الدرداء بسند حسن . (الناشر)

ترى أنهم قد أجمعوا على أن طلب الآخرة خير من طلب الدنيا(١) وقال : يلحق الخلق المغفرة فى الآخرة ، أى كيف شاءوا ، وبأى سبب أرادوا ، ولكن لا يلحقون الدرجات والكرامات إلا من الدنيا وبقدر ما يتلذذون فى الدنيا ، أى بالطاعة ، كذلك يتلذون فى الآخرة ، أى بالنعيم والنظر .

مالك وما لله :

وسئل سهل عن الحديث : « إذا أردت أن تعلم مالك وما لله فانظر ما لله عندك » قال : انظر كيف ورعك وكيف زهدك وكيف تعظيمك (يريد لله) كيف هيبتك (له) .

الخدمة فى الله :

وقال من اهتم لغد لم يعد لمولاه ألبتة ، قال عبد الرحمن : أى على الحقيقة(٢) .

وقال سهل : ومن زعم أنه يخدم مولاه ويخدم نفسه فلا تصدقه قال عبد الرحمن : أى على الحقيقة إن شئت أن تخدم نفسك ، وإن شئت أن تخدم مولاك . معنى خدمتك نفسك اشتغالك بحظك عن الله عز وجل . ومعنى خدمتك لربك اشتغالك به لحظك ، وشغل الصديقين بالله لله تعالى .

---

(١) أى وفيهم من يخالف بسلوكه المبدأ فيؤثر فعلا الكسب العاجل وينهمك فى جمع التراث من غير تلطف ولا إجمال .

(٢) لعل التسترى يقصد بالاهتمام هنا الامتلاء والانشغال بهموم الغد دون التشمير عن ساعد الجد بحيث يحتل هذا الاهتمام سائر النفس الإنسانية والاهتمام بهذا المعنى نظير القلق والاضطراب يشل حركة الإبداع أو التصرف لدى الإنسان . وإلا فإن الاهتمام بالغد بمعنى اتخاذ الإنسان عملياً خطوات معينة مستعيناً بالله فى كل ما يأتى وما يدع — هذا الاهتمام بهذا المعنى هو ما أوجبه الإسلام وفرضته الشريعة . ومراد التسترى تأكيد جانب الإسلام الكامل إلى الله سبحانه .

الاستغناء بالله والاستعاذة به :

وقال سهل : بقدر ما تستغنى بخالقك تستغنى عن الخلق .

قال عبدالرحمن : وبقدر ما تفتقر إلى المخلوقين يسلمك الله لهم.

٢٣٤ أ وقال سهل : إذا جاء العدو إلى الصديقين علموا أن ليس لهم سوى الله فيصرخون إليه ، وهؤلاء يقطعون مسيرة خمسين ألف سنة فى لحظة واحدة .

أدب استقبال النعمة :

٢٣٤ أ وقال سهل : إذا أعطاك الله نعمة فخذها منه ثم ردها إليه ، ولا تشتغل عن الله بكل نعمة تحت السماء . فإذا كنت كذلك فلا يضرك لو أن الدنيا كلها ذهب (١) .

وقال : كل شىء يكون بالعلم والاقتداء والإجابة فليس بتدبير ، والتدبير هو دنيا مذمومة ، وهو الاحتيال حتى يصل إليه الشىء . وأما التجارة والصناعة فإذا كانت باتباع السنة فلا يكون تدبيرا (٢) .

وقال سهل : ما رجع أحد إلى علم الباطن إلا صار زنديقاً(٣) قال عبد الرحمن : يعنى تضييع العلم الظاهر من الأحكام وقطعه تواجد الأسرار بغير ظاهر صحيح . وهم أهل المغاليط المدعون فى هـذا العلم ، الذين أهلكوا أنفسهم بالباطن على ترك الظاهر ، وأهلكوا غيرهم من الجهال والسفهاء ، وإنما بين مقام الصادقين ودرجة الصديقين يفسد الظاهر بالباطن ، وبين مقام الصادق وحال ٢٣٤ ب الزنديق مفارقة الظاهر ، والأخذ بكل ما جرى فى الباطن بغير

---

(١) فى هذا ما يؤكد من سبق أن ذهبنا إليه فى كتبنا من أن الغنى لا يتناقض فى نظر التسترى مع هذا الزهد والتوكل ، وأن رأى الصقلى فى ضرورة التجرد لا يمثل حقيقة موقف التسترى .

(٢) مرة أخرى يتأكد موقف التسترى من مبدأ التدبير فهو لا يذمه كله ، وإنما يشترط الاهتداء والاقتداء فى هذا التدبير بالالتزام بالكتاب والسنة .

(٣) فى هذا النص تعضيد وتأييد للفرق بين الباطنية ومذهب سهل .

معرفة الظاهر ، والمدعى العلم بأمر الله هلك فى الظاهر لتركه تصحيح الباطن والمدعى العلم بالله هلك فى الباطن لتركه صحبة الظاهر .

المرأة :

وقال سهل : أكثر النساء المتعبدات يكن مجابات الدعوة(١) .

قال عبد الرحمن : لا تكون امرأة من أرباب الأحوال ولا صاحبة مقام ، وإنما هن أصحاب فضل وترقى درجات فى الإيمان بما وصفهن الله فى سورة الأحزاب(٢) .

وسئل أبو محمد عن المحب أيخاف ؟ قال : نعم ، أشد الخوف خوف المحبين . قيل : لأى شىء خوفهم ! قال : من انقطاعه (٣) .

قال عبد الرحمن : خوف التائبين والمريدين خوف الآثار والذنوب ، وخوف المحبين خوف الانقطاع ، وخوف العارفين خوف الفوت ، وخوف العلماء خوف الإعظام والإجلال .

التوكل :

٢٣٤ ب وسئل أبو محمد عن التوكل ، فقال : ترك الأسباب والسكون إلى الله مع قطع الطمع من غيره .

---

(١) مابين القوسين ساقط فى الأصل

(٢) من سورة الأحزاب ، الآية ٣٥ يقول الله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات . والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما » . وكلام الصقلى فيه نظر طويل .

(٣) أى عن المحبوب وهذا من دقة نظر التسترى وصدق تجربته .

قال عبد الرحمن : أصل حقيقة التوكل الكفاية بالله ، لقوله : « أليس الله بكاف عبده » (١) .

وفرع حقيقة التوكل السكون إلى الله تعالى فى الخاتمة .

ذنب الصديقين :

وقال سهل : جناية الصديقين حديثهم مع أنفسهم ، قيل : مامعناه؟ قال : سكوتهم مع أنفسهم قولهم تفعل هكذا وتفعل كذا ، قال عبد الرحمن : أى مما يعتقدونه من البر (٢) .

٢٣٥ أ قال عبد الرحمن : حديثهم مع أنفسهم فهذا وسوسة وشغل من العدو حين يئس من الذنوب والمعاصى لفترة من الأمل ، لأنهم مطالبون بحالهم فى الوقت والشغل بغير الوقت (لا يليق بهم) .

التواكل والقعود :

وسئل أبو محمد عن الرجل يقعد ، فقال : هذا خطأ ليس من أفعال الصديقين إلا أن يشتغلوا بالعلم أو بالذكر أو بالعبادة .

التقوى :

وقال : التقوى ظاهر باطن ، فالظاهر الحدود ، والباطن الإخلاص .

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٣٦ .

(٢) وجهة نظر التسترى أن ذنب الصديق فى رؤيته لعمل نفسه وتقديره لدوره وتدبيره مما يعد غفلة عن حقيقة الأمر فى امتلاك الله جل جلاله لأزمة الأمور فى غاياتها وعواقبها من باب قوله تعالى « ولله عاقبة الأمور » وما وضح به الصقلى كلام التسترى للاحتراس من أن يظن بالصديقين السوء فيعتقد أن ما يحدثون به أنفسهم إنما هو بأعمال السوء أو الفاحشة وهنا نجد مستوى آخر فى الترقى الروحى حيث يعتبر الاعتداد بعمل أكبر منقصة بالنسبة لهذه المرتبة الروحية على حين أنه قد يعتبر محمدة ومفخرة بالنسبة لمرتبة أدنى من ذلك .

وسئل عن الذى يأخذ ويعطى ،قال :لا يأخذ الفضل إلا عند الواجب . وقال : ما نال الصديقون أفضل من الأدب ، وأما الطاعات فتكون كثيرة .

القوت والكفاف :

وسئل عن الكفاف فقال : أن يرى الله كافياً ويكتفى بثبات عقله وروحه .

قال عبد الرحمن : يعنى عند الأكل أن يأخذ من الطعام مايقيم به روحه وعقله لوقته .

وقال سهل : ما بعث الله نبياً إلا لخراب الدنيا وهدمها . ومع ما أعطى الله سليمان بن داود من الملك لم ينظر إلى السماء ولم يرفع رأسه تخشعاً وكان يلبس الشعر . وقال غيره : وكان يطعم الدرمك ويأكل فى خاصته الشعير .

٢٣٥ ب وقال سهل : أصل كل رغبة من طول الأمل ، وهو حب الحياة .

محبة للدنيا والحياة :

٢٣٥ قال عبد الرحمن : الناس فى محبة الحياة على وجهين : واحد يحب البقاء طمعاً فى التوبة قبل الموت ، وآخر واجد الحال فيه لذة من الطاعات فلا يحب مفارقته . وكل من أحب هذه الحياة لغير هذه الأحوال فهو خسران فى الدنيا وعذاب فى الآخرة .

المبتدىء والعقبات :

وقال سهل : ما من مبتدىء نال من الله عز وجل شيئاً من الخير حتى قطع الله هذه العقاب للعدو والنفس والدنيا . فكلما وقع فى قلبه من العدو رجع إلى عقله واستعان بالله ، وإذا وقع له شىء من نفسه رجع إلى الله فآثره على نفسه ، ثم بعد هذا مسائل الروح والنفس والوسوسة تجرى فى القلب ، لا يعرف هذا من هذا إلا

صديق مخلص ، قال عبد الرحمن : يعنى أن المخلص قائم على همه عارف بنيته ، فإذا وقع له شيء لغير الله أوقفه ورده ، ورجع إلى أصل صدقه وإخلاصه فى عقده .

العلم والاتباع :

وقال : طلاب العلم ثلاثة : واحد أخذ الأصل من سره والفرع من سره فهلك .

قال عبد الرحمن : أى لرده من معقوله إلى معقوله . وآخر أخذ الأصل من غيره والفرع من غيره فسلم ، قال عبد الرحمن : أى لاتباعه بالتقليد فى السنة ، ثم لم يذكر أبو محمد الثالث وهو الذى أخذ الأصل من غيره والفرع من سره فظفر بالغاية وسلم له ٢٣٦ أ الأصل وثبت له الفرع ، وهم أهل الاستنباط من العلماء ، وأهل الحكمة من الرفعاء (١) .

وقال سهل : من عرف الله بعظمته وعدله ، خافه وعلامة خوفه فى اجتناب النهى ، ومن عرف الله بجوده وكرمه رجاه وعلامة رجائه فى خدمته وطاعته ، ومن عرف الله بفضله وسعة رحمته أحبه ، وعلامة محبته إشارة على نفسه وروحه وأهله وماله ، ومن لم يتبين منه هذه العلامات فهو مدع .

---

(١) قد وضح التسترى هذا المبدأ فى كثير من أقواله التى تدل فى مجموعها على ضرورة الاقتداء والاتباع للكتاب والسنة لحياة الصوفية وهو يوافق الجنيد وجل الصوفية فى اشتراط مراعاة هذين الأصلين بالنسبة للمسالك . والتقليد هنا لا يعنى المحاكاة البلهاء وإنما يعنى الاقتداء الواعى المقتنع . وهو بهذا المعنى لا ينطبق عليه ما ذكره الغزالى من عدم الاعتداد به . ويبدو من كلام التسترى أنه كان يقصد إلى التحذير من الاعتماد على الباطن فى الأصل والفرع لأنه اتباع للهوى وفى هذا رد ورفض لما دعا إليه الباطنية . وما أضافه الصقلى وجيه لأنه يبرر كشف الصوفى للفهم الجديد من الأصل القديم . وهذا المبدأ يبرر وجود التفسير الصوفى للقرآن لأنه عبارة عن مباينة إضافية جديدة تضاف إلى ما سبق كشفه عن طريق النقل والرواية . ويؤكد ابن عربى فى كثير من كتبه أن الولى لا يأتى بشرع جديد وإنما يأتى بفهم جديد للفروع .

العلم والورع :

٢٣٦ أ وقال : لا تدعوا العلم حتى تتورعوا فيه ، ولا تدعوا العمل حتى تخلصوا فيه ، ولا تدعوا الإخلاص حتى تقتدوا بالسنة فيه ، ولا تدعوا الاقتداء حتى تصدقوا الله فيه ، ولا تدعوا الصدق حتى تشفقوا فيه ، ولا تدعوا الإشفاق حتى تفتقروا فيه ، ولا تدعوا الافتقار حتى تتبرأوا من الحول والقوة إلى حول الله وقوته .

العلم والعمل :

وقال سهل : العبد ميت وحياته بالعلم ، والعلم حجة ، والعمل محمود ، والعمل ممزوج بالآفات حتى يخلص ، فإذا أخلص فذلك الرضا .

٢٣٦ ب قال عبد الرحمن : العمل المرضى ما كان على سنة ، والعمل المقدس ما افتقر إلى الله فيه .

الذكر :

وقال سهل : ليس من ادعى الفكر هو الذاكر ، ولكن الذكر الصحيح ألا يفارق قلبه هذا العلم بأن الله مشاهده ، يراه بقلبه قريباً منه فيستحى منه ، ويخافه ويؤثره على من سواه ، ولا يتم هذا للعبد حتى يعرف حاله فيما بينه وبين ربه . وتمام هذا للعبد أن يكون جهله مزيداً لعلمه ودنياه مزيداً لآخرته وظاهره مزيداً لباطنه(١) قال عبد الرحمن : يعنى جهله مزيداً لعلمه أى سهوه وغفلته يريد فى يقظته وذكره ودنياه مزيداً له فى آخرته أى بالإيثار والعمل ،

---

(١) هذا النص للتسترى هو ثمرة طيبة للدرس الأول الذى تلقاه فى طفولته من خاله محمد بن سوار (انظر من التراث الصوفى – الجزء الأول – الفصل الثانى دار المعارف ١٩٧٤) . ومبادىء هذا الدرس هى ملاك الحياة الروحية وتتلخص فى دوام المراقبة لله عز وجل . وهـذا ينتهى إلى الغيبة بالمذكور عن الذكر .

ومعنى ظاهره مزيداً لباطنه أى بالخوف والحياء والصدق وأفعال الرضا (١) .

أخلاق المؤمنين :

وقال سهل : من أخلاق المؤمنين وعاداتهم ألا يكون منهم فى الخلا ما إذا كان منهم فى الملا استحيوا منه ، يعنى تعطيل الواجبات والمفروضات والاستخفاف بالسنن المرغوب فيها ، والسنن التى تسابق الناس إليها .

قيمة الرحمة :

وقال سهل : فى الصراط عقبة لا يجوزها أحد إلا من استقر فيه الرحمة وطهر من الذنوب . . قال عبد الرحمن : يعنى العقبة السابعة المنحدر منها إلى الجنة .

طلاب العلم :

٢٣٧ أ وقال : طلب العلم ثلاثة : واحد يطلب علم الورع فيدع
٢٣٧ أ الحلال مخافة الحرام ، وآخر يستمع الاختلاف فيدع ما عليه ويدخل فيما وسع عليه ويأخذه لله بالورع ، وآخر يسأل عن الشيء ، فيقال له : هذا لا يجوز لك ، فيقول كيف أصنع حتى يجوز ؟ وكيف لى بأن يجوز ؟ ويسأل عن ذلك ، فأيما عالم رخص له واحتال حتى جوز ذلك له فبذلك جاء هلاك الأولين والآخرين ، وهم علماء السوء، ولهؤلاءثلاث عقوبات فى الدنيا : يفقد علم الورع ويضيع منه وتيسر له الدنيا فيطلبها ويفتتن بها تسمعاً وتصنعاً ، ثم إنه لو أعطى جميع الدنيا لأخذها فى هلاك دينه ولا يبالى ، فإن الأكياس هم الذين

---

(١) ما أضافه الصقلى يعقد النص ويبعد به عن المراد . والظاهر أن التسترى يريد أن يقول إن جهل العبد يدفعه إلى طلب المزيد من العلم أى أن إحساسه وإدراكه لقصور علمه يستحثه على طلب المزيد ، كما أن الدنيا وما أتيح فيها من وقت وعافية تكون سبباً طيباً للفلاح فى الآخرة .

ينظرون إلى أنفسهم من القبور والقيامة والوقوف بين يدى الله تعالى والصراط والحوض ، ومن لم يطلب حاله من هذه المواضع يغلط فى طلبه شاء أم أبى .

ثمرة العبـــادة :

وقال : من لم يرجع إلى الله فى هاتين الخصلتين لم يرجع بشىء من العبادات : ذكر الموت وقيام الله عليه فى السؤال ، فإن فى ذكر الموت هدم اللذات ، وفى قيام الله عليه عند السؤال طهارة سره ؛

التداوى :

وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل فى شىء منه
٢٣٧ ب فإنما هو صنعة من الله لأهل الضعف ، ومن لم يأخذ الماء البارد بسبيل الدواء استغنى بماء المزن فهو غافل عن حقيقة معرفته وشكره ، ومن لم يدخل فى شىء منه أى فى أخذ الدواء فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئاً من الدواء — ولو كان الماء البارد — سئل عنه . قال عبدالرحمن معناه أن يسأل عن أداء شكره : التسمية فى بدئه والحمد لله بعد شربه (١) .

استطراد الندرة مع الترقى :

وقال : المؤمنون فى الكفار قليل والصالحون فى المؤمنين قليل ، والصادقون فى الصالحين قليل ، والصابرون فى الصادقين قليل ، والراضون فى الصابرين قليل ، والعارفون فى الراضين قليل . قال

---

(١) هذا رأى خاص بسهل : وقد نفذه فى نفسه حيث لم يتلمس دواء لعلته مع أنه كان يعالج غيره بالدواء . والملاحظ أن التسترى كان يلح على أن الشفاء لا يأتى من الدواء ذاته وإنما الله جل جلاله هو الذى يمنحه سواء بتناول الدواء أو بلا تناول . ويشرح التسترى فى رسالته الحروف أن الله كما خلق الداء خلق له الدواء ، وملخص ذلك أن السر فى الشفاء يكمن فى القدرة والفضل الإلهيين ولا يكمن فى الدواء بعينه . انظر كتابنا من التراث الصوفى ١ — ١٧٢ وما بعدها .

عبد الرحمن : والقانعون فى الراضين قليل ، والمتوكلون فى القانعين قليل ، والمتوكلون فى أهل حقيقة التوحيد قليل .

الأركان الأخلاقية للدين :

٢٣٧ ب وقال سهل : هذا الدين أربعة : الصدق واليقين والرضا والحب ، وضد هذا ليس من الدين . فعلامة الصدق الصبر ، وعلامة اليقين قبول النصيحة ، وعلامة الرضا ترك الخلاف ، وعلامة الحب الإيثار .

وقال عبد الرحمن : أصول الأحوال أربعة : الصدق
٢٣٨ أ والإخلاص والخوف والرجاء . فميراث الصدق الصبر ، وميراث الصبر اليقين ، وميراث اليقين التوكل ، وميراث الإخلاص وجود الحكمة والمنطق بالموافقة ، وآلة النظر بالنور والفراسة ، وميراث الخوف الزهد والورع ، وميراث الرجاء الجد والاجتهاد والمحبة والإيثار .

الخصوصية :

وقال سهل : الخصوصية من خص بالعمل فى العلم ، ليس من خص بالعلم وحرم العمل .

قال عبد الرحمن : وليست الخصوصية بالعمل دون العلم والاقتداء بالسنة والأخذ بالورع والسيرة بالأدب .

ثروة الإخلاص :

وسئل أبو محمد عن الحديث : « من أخلص لله أربعين يوماً أنطقه الله بالحكمة » كيف له بذلك ؟ قال : يقدم نيته فى حفظ جوارحه ولا يخرج منه شيء يكرهه الله تعالى ، ويجتنب كل نهى نهاه الله عنه ولا يطعم إلا حلالا .

قال عبدالرحمن : لو فعل العبد هذا أربعين عاماً ما وصل(١) إلى الحكمة ما لم يكن عمله لله عز وجل ، وإنما عمل حتى يجد الحكمة فيكون حكيما فى الدنيا ، وكذلك جميع المقامات والدرجات ولا يصل إليها من عمل لها حتى يخلص لله ، ولا يشترط بصره شيئاً ٢٣٨ ب لشىء إلا أن يعمل للخلاص من النار أو الدخول فى الجنة فإنه جائز(٢) فى المعاملة ، وإما لسبب يناله من الدنيا من الكرامات وغيرها فلا ، ولو ناله للحقه الفساد فيه ونقص الدرجات فيه به ، لأنه عمل لاستعجال من الله فى الدنيا ، وإنما ينال أفضل الدرجات وأعلى الكرامات من عمل له إعظاماً وإجلالا لحق واجبه ، وهـذا المدخول له عليه المقامات(٣) والدرجات ، وهو متعلق بالله فيها غير ٢٣٨ ب ساكن إليها .

النصح :

وسئل أبو محمد عن النصح ، فقال : أدنى النصح أن يستحكم علم ما اختار الله له ولهذا الخلق فيختاره ويرضاه لنفسه ولهم جميعاً.

حسن الخلق :

قيل له : فحسن الخلق ؟ قال : أدناه أن تأبى على من نصح لك وهو الله عز وجل .

---

(١) استدراك الصقلى هنا لا محل له ؛ لأن التسترى اشترط تقديم النية وحفظ الجوارح عن أن تقارف ما يكره الله ، وصفاء المطعم . الخ . . وهذا لا يأتى إلا أن يكون الإنسان مريداً بذلك وجه الله سبحانه .

(٢) أى مع وجود ما يفضله وهو أن يعبد الله لوجه الله سبحانه ، لا انتظاراً لثواب ولا خوفاً من عقاب كما تشير إلى ذلك رابعة العدوية فى قولها :

كلهم يعبدونه خوف نار ويرون النجاة حظاً جزيلا
ليس لى فى النار ولا فى الجنان حظ أنا لا أبتغى بحبى بديلا

ويؤكد هذه النظرة آخر النص فى قوله « وأعلى الكرامات من عمل له إعظاماً وإجلا لا لحق واجبه »

(٣) العبارة ركيكة ولكن المعنى ظاهر .

الرياءمبطل للعمل :

وقال سهل : كما يبطل التوحيد الشرك ، كذلك الرياء يبطل الأعمال ، قال عبد الرحمن : وكما لا ينفع البر فى الشرك ، كذلك لا يبطل الإيمان الذنوب .

وقيل لأبى محمد : الرياء يكون فى الفرض ؟ قال إظهـــاره بالتحسن ، وترك إقامة واجب حقه فى الخلاء .

العلم والعلماء :

وقال سهل : العالم الذى يعمل بعلمه ، والعاقل الذى يقتبس العلم والعقل . قال عبد الرحمن : العاقل الذى يقع بعقله دون شهوته، ويستنبط العلم من العلم بمعرفته ، والعالم العاقل الذى يتبع دلالة علمه ويسع الجاهل حلمه ورفقه وتواضعه . ٢٣٩ ب

وقال سهل: ثلاثةأشياء ليس للعلماء أن ينظروا فيها بعد معرفتهم بها : إذا عرفوا العدو فلا ينخدعون له ولا يقبلون منه ، وإذا عرفوا الدنيا فلا يشتغلون بها ، وإذا عرفوا النفس فلا يقبلون عليها .

الدنيا وزخرفها :

وقال : الدنيا خزانة من خزائن الله عز وجل يفتحها على من يشاء من عباده ويحبسها عن أوليائه ، ولم يفتحها على أحد إلا وقد بين له حجة فى ذلك عليه إن ما أخذ منها نقص من آخرته .

وقال : أيما معلم أو صاحب أو أخ فى الله جاء على يديه شيء من الدنيا من: مطعم أو ملبس فوق الضرورة أو ما لابد له منه فهو مشئوم على إخوانه وأصحابه . ولا أعلم أحداً من أهل العلم والعقل أحب لأحبابه شيئاً من لذات الدنيا وزخارفها ، ومعناه فيما ينتقص

٢٣٩ أ به حاله فى الآخرة (١) . وكلام سهل فى هذا على المتناهى فى حاله لأن المبتدىء يصلح لذلك إيمانه ونفسه .

استحقاق الجنة ومراتب المستحقين :

وقال : الجنة على ثلاث حالات نالوها : فأعلاها لمن لم يتلبس بشىء من هذه الدنيا ، لم يأخذ ولم يملك ولم يأكل ولم يشتر إلا القوام والضرورة ، وأوسطها لمن أخذها من حقها ووضعها فى حقها ، وأدناها لمن أخذها من حقها فأدى منها الحق وأنفق الباقى على نفسه وعياله ، أى فى الشهوات واللذات من المباح والحلال .

إجابة الدعاء :

وقال : ما من عبد كانت له حاجة فعمد بثلاث جمعات بعد العصر إلى موضع خال كيلا يشغله أحد عن الدعاء ، فدعا الله عز وجل إلا قضيت حاجته (٢) .

كف الأذى أول الحقوق على الناس :

وقال : توزن أعمال العباد يوم القيامة فلا يكون عبد أرجح من عبد كف أذاه عن الخلق ، إلا من كان فى العلم ، والعلم أصل الدين ، وليس على العبد من العرش إلى الثرى أشد من كف الأذى ولا أعلم شيئاً أشد من حقوق الناس . وقال : بقدر ما تقدم من دنياك تنال من آخرتك ، وبقدر ما تخالف به نفسك وهواك وشهوتك ترضى بذلك ربك ، وبقدر معرفتك لعدوك تستعين بربك .

---

(١) العبارة « ومعناه فيما ينتقص به حاله فى الآخرة » من كلام الصقلى وهو احتراس لئلا يفهم أن مجرد إقبال الدنيا مدعاة للسقوط ، وقد قيد الصقلى المعنى المفهوم من كلام سهل بكونه ينطبق على المتناهى لا على المبتدى .

(٢) سبق أن أشار التسترى إلى أن الدعاء المجاب سبيله العمل الصالح واستقامة الحال مع الله ، وليس مجرد الإعداد الشكلى أو تخير أوقات معينة .

مفهوم المكان واللذة :

وقال : إذاقيل لكم أى شيء المكان ؟ فقولوا : العلم . فإن قيل لكم فما اللذة ؟ فقولوا : الذكر .

قال أبو القاسم : فالمكان هو المقام فى الإيمان والدرجة فى العلم واللذة فى الذكر والشغل بالمذكور عن وجود لذة الذكر . ٢٤٠ أ

الدنيا والورع :

وقال : من أراد شيئاً من هذه الدنيا بالورع فلابد له من ترك ثلثى ما يريده منها حتى يصح له الثلث ثم يلزمه فى هــذا حق فى الأوقات ، مثل الزكاة والحج ، وحقوق تلزمه لنفسه وأهله وعياله وقرابته وجيرانه لابد له من القيام به ، ثم ما بقى معه قد دعاه الله إلى الدرجات المضاعفة ، فإن حبسه فلا لوم عليه ولا يلام . ٢٤٠ أ

مفهوم تأدية الفرض :

وقال : من أراد أن يؤدى الفرض كما أمر به فليقتطع طمعه من الدنيا فى حاله قليلا كان أو كثيرا ، وإلا فالوسوسة تلحقه .

وقال عبد الرحمن : تمام الفرض وقصر الأمل للحديث : « فإذا صليت فصل صلاة مودع » .

الخوف :

وقال سهل : أعلى مقام فى الخوف أن يخاف العبد سابق علم الله تعالى فيه .

قال عبد الرحمن : هذا من جهة حال العبودية ، وأما حال المعرفة بعد العلم فأعلاه خوفهم خوف الإجلال والعظمة .

غاية العمل :

وقال سهل : من كان عمله للآخرة زال عن قلبه كل شيء من الدنيا

سوى الآخرة ، ومن كان عمله لله زال عن قلبه ذكر كل شيء سوى الله .

قال عبدالرحمن : المقام الأول صفة لأهل التعبد بالعلم والمعرفة والمقام الثانى صفة لأهل العلم بالتوحيد .

مقاييس إخلاص العمل :

٢٤٠ ب وقال سهل : لا يصح التعبد لأحد ولا يخلص له عمل حتى لا يفر ولا يعجز من أربع : الجوع والعرى والفقر والذل .

قال عبدالرحمن : هذا من جهة المجاهدة فى حال الندامة ، وأما من وصل إلى حال التسهيل أوكان مراداً فمقامه حال التسليم بالرضا لما أدخل عايه الحق من كل حال ، ويحتمل أن يكون معناه الجوع أحب إليه من الشبع من حرام ، والعرى والفقر والذل فى طاعةالله أحب إليه من العز فى معصية الله(١) .

وقال : المؤمن ليس له نفس لأن من طلب الآخرة فقد باع نفسه وماله من مولاه .

قال عبد الرحمن : أول قدم لأهل الحقيقة فى الإيمان الصدق ثم ترك الانتصار للنفس ، وفيه يجدون حياة القلب وروح الطاعة .

المشورة :

وقال سهل : شاوروا المتقين الذين يؤثرون الله على أنفسهم، ويؤثرون الآخرة على الدنيا .

---

(١) يبدو أن التسترى يريد ثبات النفس ورباطة جأشها بحيث لا يخيفها جوع ولا عرى ولا فقر ولا ذل ، وما ذكره الصقلى توجيه لا بأس به وإن كان تفسيره تفضيل الجوع على الشبع من حرام تفسيرا لا حاجة إليه فى هذا المقام ، إذ الشبع من حرام لا خلاف فى عدم جوازه ، اللهم إلا أن يدخل الإنسان منطقة الاضطرار وحتّى فى هذه الحال لا يحق له أن يشبع وإنما يقتصر من ذلك على ما يقيم الأود .

تدرج الفضلاء :

وقال : المؤمنون فى ميزان العلماء ، والعلماء فى ميزان العباد والعباد فى ميزان الزهاد ، والزهاد فى ميزان الشهداء ، والشهداء فى ميزان الصديقين ، والصديقون فى ميزان الأنبياء ، والأنبياء فى ميزان المرسلين .

وقال عبد الرحمن : معنى قول أبى محمد : العلماء فى ميزان العباد ، أى العمال بالعلم ، وأما العباد بلا علم فالعلماء أفضل منهم .

سرعة العقوبة :

٢٤١ أ وقال سهل : إذا هم القلب عوقب على المكان ، ولا يعرف هذا إلا العلماء بالله تعالى .

قال عبد الرحمن : من ميز نور الحق من ظلمة الباطل عند موارد الرغبة والرهبة والطاعة والمعصية ، عرف دخول العقوبة عليـــه .

مراعاة الأنفاس :

وقال سهل : الأنفاس معدودة ، فكل نفس بغير ذكر فهو ميت ، ولا تصلح النية لأحد حتى يصيروا أكياساً علماء فقهاء فى الكتاب والسنة والأثر والاقتداء (١) .

قال عبد الرحمن : الكيس الصدق فى العلم والإخلاص فى العمل والفقه فى الكتاب والفهم فى المثل والمعرفة بالمراد فى الحكم والحدود والأثر والحديث والاقتداء بالنبى ﷺ وأصحابه .

---

(١) هذا من دقائق الملاحظات الصوفية وهو مراعاة الأنفاس كوحدات قياس للزمن وهذا من تمام الصحو والمراقبة والإحساس بقيمة الوقت وعدم إهدار جزء منه مهما صغر .

استشعار قرب الله :

وقال سهل من نظر إلى الله قريباً بعد عن قلبه كل شيء سوى الله تعالى ، ومن طلب مرضاة الله أرضاه الله ومن سلم قلبه لله تولى الله جوارحه . قال عبد الرحمن : هذا كله إذا كان العبد مريدا بالحق للحق ، وأما إذا كان مراداً بالحق فالحق يحفظ عليه الأحكام .

أخلاق الإسلام :

وقال سهل : من أخلاق الإسلام الحياء وكف الأذى وبذل المعروف والنصيحة ، وليس فى التفريط فى الدين عذر (١) .

الإفراط فى الأكل والنوم :

٢٤١ أ وسئل عن كثرة الأكل وثقل النوم والكسل ، فقال : ما من
٢٤١ ب صادق إلا وقد امتحن بهذه الثلاث ، وطولبوا فى ذلك بالعمل والجد ، فمن قام بهذه الثلاث وجد نور ذلك فيه .

الوطنات والخطرات :

وقال : إذا كانت الوطنات إخلاصاً . فالخطرات وساوس ، ولن تدع الوطنات أن تتوطن الخطرات فصارت تلك الوساوس والخطرات إخلاصاً . فمثله كمثل القادح الحجارة والملتمس إذا ضرب ولم يكن الحراق أى شرر النار ولا يدفع بها فيصير الذى يخطر بقلبه من الإيمان والإخلاص واليقين حجة لله عليه(٢) .

---

(١) هذه جوانب إيجابية يجب أن يراعيها المسلمون .

(٢) « الوطنات » ما استقر فى النفس من الخواطر والنيات الحسنة التى تستقيم مع الفطرة ومع الضمير ، وأما الخطرات فهى نزغات طارئة ووساوس عاجلة لا تلبث أن تقيم وتلح إذا لم يصرفها الإنسان بالاستعاذة بالله واللجوء إليه لقوله تعالى « وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله » وقد أوضح التسترى ذلك فى مناسبات عدة ، وألح على أنه لا مخرج للإنسان من مأزق الوساوس والإغراءات الشيطانية إلا باللجوء إلى الله والاستغاثة به . وقد بين التسترى أن ذلك سنن الأنبياء والصالحين ، وقدم لذلك كثيراً من الأمثلة ، أوضحها ما ذكره عن يوسف عليه السلام . (انظر تفسير القرآن العظيم للتسترى) .

حفظ اللسان والقلب :

وقال : من يسلم له يوم عرفه وحفظ لسانه وقلبه خاصة ، غفر للسانه ولسائر جوارحه ذنوب سنة .

الصلاة على الرسول بعد عصر الجمعة :

ومن قال فى يوم الجمعة بعد العصر : اللهم صل وسلم على محمد النبي الأمى وعلى آله وسلم ثمانى مرات ، غفرت له ذنوب ثمانين سنة .

قال عبد الرحمن : هذا الفضل للتائب غير المصر على الذنوب التى بينه وبين الله تعالى ، وأما الحقوق والتبعات فلا تسقط عنه إلا بتحليل أربابها وقضاء ما وجب عليه من حقهم .

الخطأ والعمد :

وقال سهل : لا يكون الخطأ والنسيان إلا من المتقين ، وأما من هو مقيم على ما نهاه الله عنه فهو عمد كله ، ومن أصول النفاق إنزال حاجتك بالناس . إذا احتجت شيئاً فخذ منه . ٢٤٢ أ

قال عبد الرحمن : معنى إنزال حاجتك بالناس ثقة بهم دون الله عز وجل ، وقضاء الحوائج من الناس على الثقة بالله سنة من رسول الله ﷺ . وأما أرباب الأحوال فإذا دفعوا إلى الضرورات أو طولبوا بالاختيار من الحق فالضعيف يعترض على ربه ويأخذ القوى إذا احتاج من القدرة ، وذلك أن يقول : يا رب . فيغاث . ٢٤٢ أ

غضب الصديقين :

وقال : وجدان قلوب الصديقين على الخلق من أفضل الدعاء وأسرع الإجابة ، لأنه شغل وحجاب عن ربهم .

قال عبد الرحمن : يريد وقوفهم عليهم فى المخالفة على ربهم فإذا

حل ذلك عوقب القوم إما بإعراض عن قبول الحق أو فتنة بالأذى لأهل الحق .

وسئل عن الحديث : « إياكم والحكايات » قال : الحكايات إثم فى القلب حتى تخرج منه (١) .

قال عبد الرحمن : إذا خرج الإثم من الجوارح صار ديناً لا يزيله إلا التوبة والاستغفار .

الرجـــاء :

وسئل عن الحديث : « يؤمر بعبد يوم القيامة إلى النار ، فيقول يا رب كنت أرجوك . فيؤمر به إلى الجنة » فقال : هذا رجل ليس عليه مظلمة ولا تبعة ولا قصاص لأحد إنما كانت ذنوبه لنفسه ، ٢٤٢ ب وكان عاصيا فى ذاته ، فلذلك صح الرجاء، فأما من يظلم ويغضب ويخون الناس فى أخذه وعطائه كيف يصح له الرجاء ؟ .

وقال سهل: أول الأنس تستأنس الجوارح بالعقل، ويستأنس العقل بالعلم ، وتستأنس الجوارح والعقل والعلم إلى العبد ، ويستأنس العبد إلى الله عز وجل .

قال عبد الرحمن : وأيما عالم(٢) يتورع فى علمه وعمله غلط وعصى الله فى الاقتداء بالأئمة شاء أو أبى ، لأن القوم كانت منهم هنات ، فتركه للورع واقتداؤه بالزلات عصيان لله عز وجل .

قال أبو القاسم : فورعه فى عمله وسلامة قلبه للسلف ، وورعه فى الاقتداء بأئمة الدين بعد إحكام صدقه وإخلاصه .

---

(١) لعله يقصد بالحكايات هنا « قيل وقال » وهو ضرب من الثرثرة المسيئة المضيعة الوقت والجهد .

(٢) فى الأصل ساقطة ولا يستقيم المعنى إلا بها . وفى هذا النص ما يؤكد تقديم يقين العم على الاقتداء بالأئمة فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الله ورسوله ، وفيه إشعار بقيمة الفرد وحفز همته على اتباع الحق متى وضح دليله . وفيه أيضاً أن لا عصمة لغير الأنبياء .

التوبة وذكر الذنب :

٢٤٢ ب وقيل لسهل : الرجل يتوب من الشيء ويتركه فيخطر ذكره في قلبه أو يراه ويسمع به فيجد له حلاوة ؟ قال يرجع إلى مولاه فيرفع إليه شكواه ، فإنه لا يتعاظمه كثير الذنوب وينكر بقلبه ويلزم الإنكار ولا يفارقه ويدعو الله بأن ينسيه ، فإن غفل عن الإنكار خفت عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة في قلبه فيسقط ، أي من حاله(١) ، وقال : القلب آلة الفكر والمعرفة ، واللسان آلة الكلام ، واليقين آلة العمل ، واليدان آلة البدن ، والرجلان آلة
٢٤٣ أ المشي ، والفرج آلة الشهوة ، والمسئول عن هذا كله ، والمطالب به هو العبد الذي فيه هذه الصفات ، وهي منسوبة إليه .

الطبع :

وقال : طبع الخلق الجهل ، وطبع الجهل الهوى ، وطبع الهوى الإرادة ، وطبع الإرادة الشهوة ، وطبع الشهوة الإصرار ، وأكثر هؤلاء (٢) يموتون على ما هم عليه من التخليط .

الرضا واليقين :

وقال : حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضا ، وحظهم من الرضا على قدر علمهم منه .

---

(١) يذكر التستري (حلية الأولياء ١٠– ٢٠٣ ، ٢٠٤) أن ذنب المؤمن قد يؤدي إلى اكتساب مائة حسنة ، وفسر ذلك بتحليل طريف ودقيق إذ قال « إن المؤمن لا يكتسب سيئة إلا ويخاف العقوبة عليها – ولو لم يكن كذلك لم يكن مؤمناً ، وخوفه العقاب عليها حسنة ، ويسترسل سهل في هذا النص حتى يبرهن على مقولته الأولى وفي هذا النص الحالي يتعرض للحلاوة التي قد ترد مع تذكر الذنب ، وهذه الحلاوة لا ترد إلا على فكر المستخف الذي ضعف إيمانه ، وهو هنا ينصح مثل هذا الفرد بالاستغاثة واللجوء إلى الله لئلا يدفعه استشعار اللذة إلى مقارفة الذنب مرة أخرى حتى يصبح عادة له : انظر من التراث ١ / ٤٤ وما بعدها .

(٢) أي المتصفون بهذه الخصال .

قال عبد الرحمن : حظ الخلق من اليقين بقدر حظهم من الإيمان ، وحظهم من الخوف بقدر حظهم من اليقين ، وحظهم من الصبر بقدر حظهم من الرجاء وحظهم من الرجاء بقدر حظهم من الشكر ، وحظهم من الشكر بقدر حظهم من المعرفة ، وحظهم من المعرفة بقدرحظهم من الرضا ، وحظهم من الرضا بقدرحظهم من التوكل ، وحظهم من التوكل بقدرحظهم من العلم بالله ، وليس للعلم بالله آخر دال ولا منتهى غاية ، وهو إقسام من الله عز وجل لعباده « يرزق من يشاء بغير حساب » (١) .

الأعزب والمتزوج :

وقال سهل : الجاهل الأعزب شيطان ، والجاهل المتزوج بهيمة ، والعالم الأعزب شيطان ، والعالم المتزوج ملك .

قال عبد الرحمن : الأعزب شيطان هو الفاجر ، والمتزوج شيطان هو المحتال ، والأعزب والمتزوج الملك هو القانع الراضى المفوض . ومعنى عبد ، أى عبد الله تعالى فى حقيقة عبوديته له .

القلب :

وقال : ليس يخضع القلب لغير الله تراه يجول هاهنا وها هنا ٢٤٣ ب فإذا قال العبد : الله ، وقف (٢) .

قال عبد الرحمن : تكلم أبو محمد رحمة الله عليه على حاله ليس على حال من يهمه فراغ البر (٣) من الجراب ، ويوحشه ذهاب الدرهم من الكيس .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣٧ .

(٢) يؤيده قوله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

(٣) صحتها فراغ الجراب من البر أى القمح والمراد الاهتمام بوسائل العيش .

والصقلى يشير إلى رفعة حال التسترى حيث لا يهمه إلا رضا الله سبحانه وذكره ، ولذا يسكن ويطمئن دائماً إلى ذلك والحياة الفعلية تؤيد ملاحظة سهل لأن الإنسان لو اتجه إلى كل —

وسيلة القوة فى الدنيا والآخرة :

وقال سهل خلق الله الدنيا والآخرة وجعل فيهما قوتين : فجعل قوة الآخرة فى القلب ، وجعل قوة الدنيا فى البدن .

قال عبد الرحمن : معنى قوة القلب . الإيمان والعلم والمعرفة واليقين والصبر والشكر والسماحة والشجاعة والاستعانة ، وقوة البدن المطعم والمشرب والراحة والنوم .

وقال سهل : بثلاثة أشياء يستحكم مقام العبد من الله ويعطى الفهم : العلم والطاعة والإخلاص .

وبثلاثة يذهب فهم العبد وعقله : الجهل والمعصية والرياء .

والأصل ثلاثة : نصيحة العقل وإجابة العلم وإيثار الرب عز وجل . »

* * *

تم كتاب (المعارضة والرد) من كلام سهل رحمة الله عليه بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه وتأييده

=اتجاه فى تحصين نفسه مادياً ، دون مراعاة أو ذكر دائم لله ومراقبته لم يغنه ذلك شيئاً فى جلب الاستقرار والسكينة والاطمئنان ولكن إذا جعل الله طلبته ، وغايته وأكثر من ذكره فى مختلف المواقف أورثه ذلك اطمئناناً واستقراراً إلا أن يكون فاسد النفس محجوب الفؤاد .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣ —
التصدير	٥ — ٦
تمهيد ودراسة	٧ — ٨
(١) المؤلف	٩
خروج سهل من تستر وطبيعة عصره	١٦ — ٢٨
(٢) أصدقاء سهل ومعارفه	٢٩
ذو النون المصرى	٢٩ — ٣٠
ابن سالم	٣١ — ٣٤
الحلاج	٣٤ — ٣٧
البسطامى	٣٧ — ٤٠
الحسن بن على البربهارى	٤٠
أبو يعقوب السوسى	٤١
أبو حمزة الصوفى	٤٢
ثقافته ومؤلفاته	٤٣ — ٥٧
هذا الجزء من مخطوط كوبرولو	٥٨ — ٦٤
بين أبى طالب المكى وسهل التسترى	٦٥ — ٧٠
موضوعات النص	٧١
الرزق	٧٣
الابتلاء	٧٤
التداوى	٧٤
الواعظ	٧٥
كتابة العلم	٧٦
مقارنة بين الخلائق	٧٦

الموضوع	الصفحة
أدب المحبة	٧٧
الفقه الحقيقى	٧٧
جلال الألوهية	٧٨
الرحمة	٧٨
المعرفة	٧٨
غاية الخلق	٧٩
القدر	٧٩
فهم القرآن	٧٩
الفقهاء	٨٠
الإرادة الإلهية وأفعال العباد	٨٠
إثبات الصفات	٨٠
قدم القرآن	٨١
المرجئة والقدرية	٨١
الإيمان ومتعلقاتة	٨٢
الاختصاص والاصطفاء	٨٣
شبه الزنادقة والرد عليهم	٨٣
التوحيد	٨٤
السنة بين الإيمان والعمل	٨٤
الإقرار بالشهادة	٨٥
الأمة الإسلامية	٨٥
الخير والشر ونسبتها	٨٥
القضاد والقدر	٨٥
الابتلاء بالأضداد	٨٦
فطنة المؤمن	٨٦
حقيقة الإعجاب بالعمل	٨٦
الصالح	٨٧

الموضـــوع	الصفحة
نسبة الأعمـــال	٨٧
حد السؤال والجواب	٨٧
الله هو الصـــديق	٨٧
مراعاة الله فى الفعل والقول	٨٧
حقيقة الزهد والتقشف	٨٨
التقدم فى طريق الأدب الصوفى	٨٨
التنزيه العمــلى لله	٨٩
كمـــال الأدب	٩٠
مسئولية العـــالم	٩٠
أنواع الرحلـــة	٩٠
المقرئون والقـــراء	٩١
خلق المؤمن والمنـافق	٩١
العلمـــاء والجهـال	٩١
القـــوة والاستطاعة	٩٢
أصــــل الغضب	٩٢
المعــلم والعلماء	٩٢
تدرج بروز العمـــل	٩٣
خطوات سير العمل وصحته	٩٣
الحـــلال والحـــرام	٩٤
مكانة الصالحين وأدبهم	٩٤
الوسيلة	٩٥
الأعداد الثلاثة	٩٥
المبتـدىء فى الطريق	٩٦
الــــدعاء	٩٧
الخروج على الإمام	٩٧
القـــرآن	٩٨

الموضوع	الصفحة
الرؤية	٩٨
التوبة	٩٩
القدر والكرامات	٩٩
الإخلاص لله	٩٩
خلوص الوحدانية	١٠٠
مخافة الله	١٠٠
فضل الإيمان	١٠٠
آفة الكسب	١٠١
الإيمان	١٠١
تبادل العلاقة بين الفكر والعقيدة والعمل	١٠١
أساس رذيلة الغيبة وحدودها	١٠٢
الدعوى	١٠٢
الرياء	١٠٣
العلم والعمل	١٠٣
الشباب	١٠٣
إبليس	١٠٤
الوسوسة	١٠٤
مراعاة الله فى كل حال	١٠٥
حسن القصد فى إظهار الطاعة	١٠٥
المتشابه	١٠٥
الكسب ومشروعيته	١٠٥
الشكوى لا تكون إلا لله	١٠٦
المحاسبة والموازنة	١٠٧
الموازنة	١٠٧
أصول الأشياء	١٠٧
القول والعمل	١٠٨

الموضوع	الصفحة
الإسلام والعمل والإحسان	١٠٨
آداب سبعة	١٠٩
فساد العصر	١٠٩
تنبؤات	١٠٩
توقف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر	١١٠
البلاد والابتلاء	١١٠
تفسير الأحلام	١١٠
الخاطر الأول وموقف الإنسان ومسئوليته	١١١
المعاصى والطاعات	١١١
تسلسل الاكتساب	١١١
السعادة وسبيل تحقيقها	١١٢
الفطرة والإقتداء	١١٢
مراتب الشرف وتحققه	١١٣
الذكر	١١٣
الخوف والإجابة	١١٣
مراتب الخوف	١١٤
عذاب القبر	١١٤
شدة التكبر على المبتدع	١١٤
بركة الفاتحة	١١٤
مفهوم الفقر المراد وحقيقته	١١٤
الصديقون	١١٥
رؤية الله فى الجنة	١١٥
اختلاف الناس فى أداء العبادة	١١٦
المكايدة والتسهيل	١١٦
العقل	١١٦
السر والعلن	١١٧

الموضـوع	الصفحة
التـوكل	١١٧
الشبع	١١٨
التوكل واليقين	١١٩
ترك الهـوى	١١٩
الحـركة	١١٩
الصـديقون	١٢٠
القـلوب	١٢٠
معـرفة العـدو	١٢٠
القـدر	١٢٠
محبـة الإخوان	١٢٠
العلم بالحال	١٢١
الإستعانة بالله	١٢١
الفساد فى آخر الزمن	١٢١
الدعاء والعمـل	١٢٢
همـوم المؤمن	١٢٢
الزهد والأكل	١٢٢
الحسنات بين الكم والكيف	١٢٣
اختلاف المستويات	١٢٣
علامة المحبة والتقوى	١٢٣
آدب الفقـر	١٢٤
الفرض والنفـل	١٢٤
الحجب والانشغال عن الله	١٢٤
التـأليه المزيف	١٢٤
الراحة فى معرفة الله	١٢٥
التمتع والتقشف	١٢٥
علاج الوسوسة	١٢٥

الموضـــوع	الصفحة
الله والدار الآخرة هم المؤمن	١٢٦
أولياء الله قدوة	١٢٦
علم العلماء وعملهم	١٢٦
ما لك وما لله	١٢٧
الخـدمة فى الله	١٢٧
الاستغناء بالله والاستعاذة به	١٢٨
أدب استقبال النعمة	١٢٨
المـــرأة	١٢٩
التـــوكل	١٢٩
ذنب الصديقين	١٣٠
التواكل والعقود	١٣٠
التقوى	١٣٠
القوت والـكفــاف	١٣١
محبـة الدنيـا والحيـــاة	١٣١
المبتدىء والعقبات	١٣١
العـلم والإتبـــاع	١٣٢
العـــلم والورع	١٣٣
العلم والعمـــل	١٣٣
الـــذكر	١٣٣
أخلاق المؤمنين	١٣٤
قيمة الرحمـــة	١٣٤
طلاب العـــلم	١٣٤
ثمرة العبـادة	١٣٥
التـداوى	١٣٥
استطراد الندرة مع الترقى	١٣٥

الموضوع	الصفحة
الأركان الأخلاقية للدين	١٣٦
الخصوصية	١٣٦
ثروة الإخلاص	١٣٦
النصح	١٣٧
حسن الخلق	١٣٧
الرياء مبطل للعمل	١٣٨
العلم والعلماء	١٣٨
الدنيا وزخرفها	١٣٨
استحقاق الجنة ومراتب المستحقين	١٣٩
إجابة الدعاء	١٣٩
كف الأذى أول الحقوق على الناس	١٣٩
مفهوم المكان واللذة	١٤٠
الدنيا والورع	١٤٠
مفهوم تأدية الفرد	١٤٠
الخوف	١٤٠
غاية العمل	١٤٠
مقاييس إخلاص العمل	١٤١
المشورة	١٤١
تدرج الفضلاء	١٤٢
سرعة العقوبة	١٤٢
مراعاة الأنفاس	١٤٢
استشعار قرب الله	١٤٣
أخلاق الإسلام	١٤٣
الإفراط فى الأكل والنوم	١٤٣
الوطنات والخطرات	١٤٣
حفظ اللسان والقلب	١٤٤

الموضوع	الصفحة
الصلاة على الرسول بعد عصر الجمعة	١٤٤
الخطأ والعمد	١٤٤
غضب الصديقين	١٤٤
الرجاء	١٤٥
التوبة وذكر الذنب	١٤٦
الطبع	١٤٦
الرضا واليقين	١٤٦
الأعزب والمتزوج	١٤٧
القلب	١٤٧
وسيلة القوة فى الدنيا والآخرة	١٤٨

كتب أخرى للمؤلف

أولا : الكتب	الناشر
١ — فى الفلسفة والأخلاق	دار الكتب الجامعية بالإسكندرية ١٩٦٦ نفد
٢ — دروس فى الفلسفة	مكتبة دار العلوم (نفد)
٣ — دراسات فلسفية وأخلاقية	مكتبة دار العلوم (نفد)
٤ — فى الدين المقارن	دار الكتب الجامعية ١٩٧٠ (نفد)
٥ — التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً	مطبعة المعرفة بالإسكندرية
٦ — من التراث الصوفى (الجزء الأول)	دار المعارف ١٩٧٤ (نفد)
٧ — من التراث الصوفى (الجزء الثانى)	مكتبة الشباب ١٩٧٦
٨ — من قضايا الفكر الإسلامى	مكتبة دار العلوم ١٩٧٨
٩ — تأملات فى الفكر الإسلامى	مكتبة دار العلوم ١٩٧٩
١٠ — رحلة بين العقل والوجدان	(كتاب الهلال الشهرى ١٩٨٠)
١١ — المعارضة والرد على أهل الدعاوى	دار الإنسان ١٩٨٠
١٢ — الإسلام بين الأديان	مكتبة دار العلوم

ثانياً : البحوث والمقالات

البحث	الناشر
١ — من مؤلفات بن مسرة المفقودة	حوليات كلية التربية بطرابلس
٢ — الألوهية بين التنزيه والتشبيه	(بالإنجليزية مجلة الإسلام والعصر الحديث)
٣ — الله هو الغاية والنهاية	(بالإنجليزية) ضمن كتاب الله فى المسيحية والإسلام بالألمانية والإنجليزية

٤ ــ الزاد الثقافى للمسلم المعاصر	مجلة المسلم المعاصر
٥ ــ آفاق الانبثاق الإسلامى لفلسفة الجمال والفن	» » »
٦ ــ تجديد الفكر الدينى	» » »

عدا المقالات والبحوث بمجلات : الهلال ، والتصوف الإسلامى ، ومنبر الإسلام ، وصحيفة الأهرام .